أهـــل الهـــوى

هدى بركات

رواية

26

من اعمال عصمت داوستاشى

آفاق الكتابة

fb/mashro3pdf

آفاق الكتابة

fb/mashro3pdf

أهل الهوى

آفاق الكتابة
(26)

أهل الهوى

رواية

هدى بركات

الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 1999

fb/mashro3pdf

الفصل الأول

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(١)

بعد أن قتلتها، جلست على صخرة عالية.

أغمضت عيني طويلاً حتى هدأت أنفاسي وانتظمت. تراخت مفاصلي، وانسابت أعضائي بعضها إلى بعض واتصلت، كمياه تتهادى بعد لجم ثم تلاحم قويين. كان جلدي يبترد بلطف في النسيم العليل، الآن وقد استعدته. الآن وقد استعدت غلافي الحافظ متيناً كاملاً خالياً من أي تشقق أو ثقوب . جديداً

تمددت على الصخرة، وتبينت أنها ملساء ناعمة كفراش وثير، تتبع إنحناءات جسمي وتوسع لها. فتحت عيني على قمر كبير

fb/mashro3pdf

وواطىء. كانت سماء نيلية منفوخة بنجوم فجة كثيرة وشديدة الإشعاع كأنها انفجرت لتوها. كانت السماء طازجة وقريبة ـ كما حين كنت طفلاً ـ أطالها لو مددت بيدي. كنت أكيداً من أني قريب إلى هذه الدرجة فلم أجهد يدي وامددها. ما بيني وبين السماء لم يكن سوى الهواء حاجباً رقيقاً وواهياً، ذلك الهواء الذي كان يسري في رئتي المفتوحتين، وقد غدتا جزءاً من حركته الشاسعة المضبوطة.

وفي هذه الساعة دخلت العالم. كنت أعبه عباً، وكنت أرتوي. عرفت إني بدأت أملك الآن ما بحثت عنه طوال عمري. أني أملك الآن كل نفسي التي تدخل هذا الفضاء وتصير منه. كأنني أولد. أسيب نفسي للريح والغابة، للوديان والسماء، وتسيب نفسها لي.

عرفت حين قتلتها ورأيت أني قتلتها، أني شربت روحها. أني شربت ملاكها فصار في. انفتحت لي السماء، والفضاء، وانفتح جسمي. عرفت أني قديس، وأن جسمي هذا قد بدأ صعودي البطيء ولكن المحقق، وإنهم إذ سيفتحون ذات يوم قبري فلن يجدوني. لن يجدوا سوى رباطاتي مفككة، وكفني فارغاً.. وسوى نساء يدلقن الطيب على التراب ويركضن فرحات، مبشرات بغيابي.

إن من لم يقتل لا يعرف.

إن من لم يقتل يظل فريسة أوهامه، فريسة عذابه وبحثه المضني

fb/mashro3pdf

عن الخلاص العجيب. وتنقضي حياته كلها كما تنقضي حياة ذبابة المزابل. تدور في مكانها، وتتخم بأسئلتها الفارغة، وتموت دون أن تحدث ضجيجاً في الهواء.

إن من لم يعرف الهوى، والغرام مكتملاً كشمس، لا يعرف. مكتملاً، الغرام، كفطر نووي عملاق لإنفجار واحد وأبدي وثابت، لا يعرف . لا يعرف أن بذرة الموت تنزل في رطوبة الظلمة الملائمة. حين نوقن من اللمسة الأولى أنه هو نفسه، ذلك الجلد بحرارته الملائمة المضبوطة استثنائياً ونهائياً من أجل حرارة جلدنا. بذرة القتل.

لكن ذلك الشبق لا يكتمل دائما في النفوس الصغيرة. في النفوس الصغيرة التي تمرض. تنصرف إلى البكاء وسماع الأغاني والتأمل الحزين في صور فوتوغرافية قديمة. تلك النفوس الموقوفة، الممنوعة عن الإكتمال.

إني أفور وأفيض على العالم الرضيع كحليب مبارك. أفيض ولا أنقص. ولا سبيل إلى إنقاصي. فقد مُنحت الغفران.. النعمة. نعمة أن تينع البذور في رطوبة نفسي وتنمو وتزهر وتثمر. فنقطف ونأكل الثمرة. نأكل الثمرة فندخل الجنة نعود إليها بالاستحقاق والجدارة المناسبين.

أقوم الآن عن الصخرة وأمشي. أمشي خفيفاً طائراً. أفتح ذراعي

fb/mashro3pdf

كيوحنا وأغني ويخرج ذهب كثير من فمي. وأغني مبشراً باسم الرب الذي عرفت. الرب الذي لمست وعانقت. أمشي، وأغني عالياً، ولا ألتفت ورائي حيث تركتها عند رجمة الحجارة، ذلك أني موقن أنها لم تعد هناك.. إنها فيّ أو أنها صعدت إلى السماء.

كان الفجر موشكاً على الطلوع. وتراءت لي سطوح القرى الصغيرة في الجبال المقابلة، وهي غارقة ما زالت في أبخرة نوم الفجر البنفسجية... رحت أغني عالياً للشمس التي ستشرق لي، وتغمرني بحرارتها العارمة.

fb/mashro3pdf

(٢)

بقرة مرقطة، بالأبيض والبنيّ.

لا، بقرة صهباء.

بقرة صهباء ترعى في سهل أخضر مترام. السهل قصير العشب، وليس هناك شيء آخر أبداً. حتى ولا أشجار أو بركة مياه تعكس السماء الشديدة الزرقة.

الوقت بعد الظهر، والشمس تميل إلى الغياب. ومن وقت لآخَر تخور البقرة خواراً طويلاً فاتراً. تهز رأسها يمنة ويسرة، ثم تعود إلى وقفتها الثابتة تنظر في العشب البعيد.

fb/mashro3pdf

كل هذا غير موجود.

إلا أن هذا السلام، إلا أن كل هذا الهناء الذي يملؤني يجعل صورة البقرة في السهل صورة حقيقية لأنها الأقرب إلى ما أنا عليه في هذا المكان.

الحديقة واسعة وكبيرة جداً لكنها ذات منعرجات كثيرة، ولا تبدو إلا اقتساماً قليلة منها للعين أينما انتقيت الجلوس على مقاعدها الخشبية الكثيرة ، ذلك أنها تمتد وتلتف حول جميع الأبنية وتصل في ما بينها، إذ تتخلل الحديقة تلك المماشي والمسالك المحددة بالحجارة الصغيرة والنبات المزهر، والتي تكون أرضها مصقولة بإتقان ليسهل سير عجلات الكراسي عليها، دون أن تهتز كثيراً بحمولاتها السريعة العطب.

حيثما أقف لا أرى الأسوار التي تلف المكان وتحيط به. فالأسوار ليست عالية جداً، ومن الخارج لا يرى المارة على الطريق العمومي سوى الأقسام العليا من الأبنية. وإما لمن هم في الداخل فالسور لا يمثُلُ إلا إذا اقتربت جيداً من حجارته التي غطت الطحالب أكثرها لسماكة الظل الذي ترميه عليها الأشجار الباسقة اللصيقة بالسور.

والأشجار الباسقة بقيت باسقة طوال هذه السنوات، بينما تقصفت كل أشجار المدينة وأحراجها، واحترقت. المدينة التي نحن لصيقون

fb/mashro3pdf

بها من على تلتنا الصغيرة الغارقة ـ ما زالت ـ بلاخضرة النضرة، فدير الصليب ـ إسم تلك التلة الصغيرة الغارقة بالخضرة النضرة ـ كانت من المناطق التي لحقها ضرر كثير لكن المستشفى حفظه الرب كما تقول الأخوات الراهبات، وبإصرار أعمى، وبقي عائماً دون باقي مستشفيات البلاد جميعها على مياه رحمة الرب طيلة السنوات الطويلة. ولصدفة عجيبة اتفق جميع المتحاربين ـ مع الرب ـ على أن يبقى هذا المكان، وهذا المكان فقط، خارج كل أنواع القصف والتدمير، حتى العشوائي تماماً منه.

فدير الصليب هو مستشفى الأمراض العصبية والعقلية الذي حملني إليه أهلي بعد أن ضاقوا بي، وأحزنهم حالي حزناً عميقاً.

حين قدموا بي إلى هنا كاد يغمى على من الدهشة إذ عجبت كيف اختاروا الأيام التي كنت فيها الأكثر سعادة في حياتي كلها ليبكوني ويودّعوني على هذا النحو. رحت أصرخ لكن الكلام لم يكن يسعفني ويخرج من فمي لأفهمهم. كانت أختي أسماء تبكي بدموع غزيرة وهي تلكم الراهبة وتقبل الصليب الأسود الكبير الذي على صدرها. ثم راحت وهي تنظر إلى ولا تراني، ولا تحاول حتى فهم الحشرجة التي كانت تخرج من حلقي ورئتي جعيراً استميت لجعله كلاماً، كذلك الذي كنت أخرجه بسهولة ولم أعد أتذكر حتى عناصره الأولى التي تصل من الصدر إلى الفم فيمتلىء فيه بالرطوبة والحركة

fb/mashro3pdf

ويخرج، راحت أسماء تبكي بصوت مسموع، وهي ترتب أغراضي القليلة في الخزانة الحديدية البيضاء.... كنت اتنفس بعمق وسرعة، وأريد فقط أن أتوصل إلى إخراج اسمها من فمي قبل أن تتركني هنا وتذهب. أ س م ا ء...

كانت تمشي في الممر حين لحقت بها متفلتاً من الأيادي الكثيرة. كانت تمسك يد الراهبة وتبكي. تلتفت إلى ثم تسير بخطى أسرع. ثم خرجت حتى في الإشارة البعيدة إليها بأني - يومها بالذات - كنت في أحسن حالاتي - كنت إنساناً سعيداً.

fb/mashro3pdf

(٣)

لم اعرف كم من الوقت مر على حين زارتني اسماء للمرة الأولى، وهل كانت المرة الأولى فعلاً؟ كانوا يبقونني نائماً طوال الوقت، وزعلت منها حين رأيتها واقفة أمامي بعينين حزينتين لكن فارغتين تماماً. نظرتُ من النافذة البعيدة، في طرف الصالون حيث أتوا بي لرؤيتها وتبينتُ أن الفصل ما زال خريفاً كما حين أتوا بي، لم تطل غيبتها عني إذن. محوت عتبي سريعاً وابتسمتُ لها. فابتسمت لي.

اخذتني من يدي وسارت بي إلى الحديقة. كنت انظر إلى يدها الصغيرة وإلى قمة رأسها التي تتجاوز مستوى كتفي. اسماء صغيرة

fb/mashro3pdf

الحجم مثل والدي، وأنا جثتي كبيرة جداً مثل جدي لأمي. أجلستني أسماء في الشمس والهواء وراحت تبتسم لي ولا تكلمني. رأيت أني انتعل شحاطة بشعة جداً فنزعتها بقوة عن قدمي الباردتين، وقلت لأسماء لماذا أتيتني بهذه الشحاطة فأنا لا أريدها. وانتظرت أن تكلمني.

أيامها كنت أنسى دائماً أين أنا. أسير وأسأل الناس في الحديقة أين نحن، لكنني ولا مرة كنت أسمع الأجوبة. ولا مرة. في الغرفة لم أكن أسأل نفسي هذا السؤال لكن في الحديقة ـ عندما صاروا يسمحون لي بالنزول إلى الحديقة ـ كنت أنسى أين أنا.... ثم تعودت أن أنسى أين أنا، فرحت استمتع بجلوسي فيها. وأتنزه.

كل زيارات أسماء اللاحقة كانت تشبه الزيارة الأولى رغم أنها لم تعد تبكي، وصارت تحادثني وتحمل إلى أغراضاً كثيرة لا أتميز ما هي. لكن أسماء صارت تضجرني كثيراً، ربما لأنها كانت تعتقد بأني حزين أو أني استدر الحزن صرت أنساها كثيراً.. كأنها لم تعد أختي أسماء. حين أطيل النظر إليها كنت أرى أبي أرى أبي، أرى أبي، أرى أبي. وأقول لها أريد أن أصعد إلى فوق لأني تعبان. وتذهب أسماء.

أرى أبي يضع يده على أذنه. يتنحنح، ثم يضع يده على أذنه، ويغمض عيناً لأنه سيبدأ الغناء بصوته الرقيق الحنون والصغير الذي

fb/mashro3pdf

يشبهه. والناس كثر في بيتنا، لكنهم يهدأون حين يقول «أوف» ويتركون كؤوس العرق الصغيرة من أيديهم، وتتخذ وجوههم ملامح رضا عميق وهم يهزون رؤوسهم، ويجيبونه أوف أوف أوف.

أضع بصعوبة يدي على أذني، لكن رأسي الخفيف يروح في كل الإتجاهات فلا أمسه. لا أمسه إلا حين أسند ثقل جسدي الكبير كله إليه. أسند رأسي بأعضاء جسمي كلها كأنها ارائك وهو يستمر طافياً كفلينة أو رخواً ملتوياً على رقبة كرقبة الرضيع. كثيراً ما يسقط في يدي، وأترك رأسي ملوياً على حاله، في موضعه، ولو على ألم يكاد يفتق فقرات رقبتي، ذلك أنه يخدر بعد حين وأنساه. فأدفأ، واتوازن، وأرتاح.

أضع رأسي أحياناً تحت إبطي، أو ركبتي وأتقوس فوقه لعل سوائل أعضائي تملأ فراغه، وتكففه عن الوقوع في كل الإتجاهات اعرف أنه بعد قليل سيهدأ وسيستكين، وسأعمد إلى هدهدته ضابطاً جميع جسمي على إيقاع واحد يستحسنه. وشيئاً فشيئاً أجعل حركتي دقيقة مترادفة كرقاص الساعة الثقيل.... وأزيد من ضبط الإيقاع بصوتي. يخرج صوتي من بدني الملفوف على شكل وردة. على شكل نينوفر تتهادى على موجة صوتي الموقّعة اللطيفة. يخرج صوتي من كل بدني إلى حنجرتي ثم يعود يتجول فيه. أريد أن اغني كأبي. بدني إلى حنجرتي ثم يعود يتجول فيه. أريد أن اغني كأبي.

fb/mashro3pdf

بدني كله أضعه إلى أذني، ويخيل إلى أني أغني كأبي... إذ ذاك لا أضجر. ولا أنسى نسياناتي الطويلة الكثيرة. لكن صوتي لا يعجب أحداً. صوتي يجعل الجميع حولي مضطربين وفي هياج. حتى يأتي الممرضون لتفكيكي وإسكاتي.

في البدء كنت أقاومهم. كان جسمي قوياً جداً. كبيراً وشديد البأس جداً. وفي لحظات غضبي كان يطير ويحلق فوقهم كصقر. حين أدفع واحدهم بمرفقي، كان يقع أحياناً بعيداً عني مغشياً عليه. وأقف أمامه مدهوشاً ناظراً في قوة نفسي. لا أصدق بعد أن أهدأ بأني على هذه القوة، وأتساءل تراها أين كانت تكمن تلك القوة الهائلة، تلك الخفة والسهولة في استعمال أعضائه الثقيلة. أمام قوة جسمي كان الممرضون، الذين يجبونني حين يحممونني، يحنقون كثيراً، ويندفعون بغضب. يضربونني بغضب لأنهم يفاجأون من أين يستمد جسمي الكبير الهزيل كل قوته تلك. يخبطون عليّ بأجسادهم، كأنهم يكرهونني، وأنا أعرف أن لا. أظل أجعر، وأخابطهم حتى يهدني التعب، وتنفك مفاصلي وأرتاح. لكنني بعد فترة صرت أقع بسرعة قبل صولي إلى متعة التعب والتلاشي بكثير. صرت اختصر متعة امتلاكي قوتي منذ عرفت بأن الأمر سينتهي بي دائماً إلى الحقنة. كنت اكف قبل أن يأتوني بالحقنة، ولا أفهم لماذا كانوا يستمرون بضربي لوقت. لا يكرهونني، لكنهم

fb/mashro3pdf

يكرهون صوتي وقوتي. وربما يكرهون قيامي بينهم مريضاً. لا يقبلونه لي.

لست مريضاً قلت لاسماء.، خذيني إلى البيت. قلت لها ذلك بعد فترة طويلة عرفت فيها أني أصبحت هادئاً جداً. إذ يتركونني أتجول إينما أريد. يمازحني الجميع ويتدافش بي الممرضون. يقرصونني في إليتي أو يمدون أيديهم إلى عضوي ضاحكين. وحين أستره سريعاً بيدي الاثنتين يقولون لي ماذا تخبىء عنا. لم يعد هنالك شيء، لقد وقع. فأضحك معهم إذ أعرف أنهم يمازحونني.

لم أعد أحب اسماء، وصرت اجد أنها تكثر من زياراتها وتبالغ جداً. لا أراها سوى خارجة عائدة وحين أتكلم إليها اقول: لست مريضاً يا أسماء خذيني إلى البيت. تظل لا ترد سوى بإبتسامتها الفارغة حتى كففت. صارت أسماء بشعة حين كبرت وأكثر ما أرى في وجهها شاربها الأسود. ثم قلت لنفسي لماذا أريد أن اغادر هذا المكان وأذهب للعيش مع أسماء؟

عرفت أني صرت رجلاً هادئاً لأنهم يفلتونني طيلة النهار تقريباً. أتجول كيفما أشاء وعند ابتداء القصف يطلبون مني حتى أن أساعدهم في إنزال المرضى والأغراض إلى الملجأ. أي إلى الطابق ما تحت الأرضي الذي يشغل نصف مساحة المبنى. ساعدتهم في تهيئته بعد أن ازداد عدد النزلاء. الصاخبون تركنا لهم حجرة واسعة.

fb/mashro3pdf

كنا نمددهم فيها بعد إعطائهم الحقن ليهدأوا وينامو...

لم تكن السهرات حزينة على نحو خاص في ليالي القصف. فقط كنا نخاف كثيراً من بعضنا... ربما أكثر من خوفنا من أصوات الإنفجارات القوية التي كانت تفتح رؤوسنا على الهستيريا والصراخ. لكننا كنا نأخذ الحبوب الحمراء. نخاف من بعضنا لما ترميه الشموع المرفوعة على الرفوف الصغيرة، عبر شباكها الحامية، من ظلال تغير ملامحنا. لكننا رغم خوفنا، كنا نتدافع بأجسادنا نحو زاوية واحدة، نتراكم فوق بعضنا في زاوية واحدة. ربما لأننا كنا نبرد كثيراً في الليل. فالملجأ رطب جداً، ولا تقينا الأغطية الصوفية برده بعد أن تطفىء الإدارة كل الموتورات، موتورات الإضاءة وتلك التي تشغّل التدفئة... طبعاً كان يجب أن نوفر الطاقة الآخذة بالتناقص إذ كانت البلد كلها في نقص حاد لمادة الفيول. هكذا كنت أفهم أنا ما يجري، ولا يفهمه الآخرون الذين يأخذون أحياناً بالعواء الطويل في الملجأ. كان باستطاعتي أن أسكتهم اكثر مما يفعل الممرضون والراهبات. كانوا يزيدون من التصاقهم بي، ربما لأني كنت الأكبر جسماً أو الأكثر دفئاً فيعتقدون أني أبوهم. كانوا يدخلون تحتي كأني دجاجة كبيرة، ويروحون يمرّغون رؤوسهم الحليقة بي، ويشتمونني كالصيصان أو كالجراء. كالجراء كانوا يحدسون بعودة القصف إلى عنفه حتى حين يكون الليل هادئاً تماماً،

fb/mashro3pdf

ونكون على استعدادنا للعودة إلى غرفنا وأسرّتنا. تجحظ عيونهم، وتتوتر حركتهم ويستفيقون إن كانوا نياماً. يصدرون أصواتاً سميكة وعميقة من حناجرهم، ويتململون في كل الإتجاهات.. ثم يعود القصف إلى عنف إشتعاله.

عرفت أني أصبحت رجلاً هادئاً لأني لم أكن كذلك في البدء، لأني صرت أراهم، وأعرف أنهم لا يرون بعضهم ولأني كذلك لم أعد أتبدل بسرعة، وانتقل من حال إلى حال.

في البدء، كنت أكون هادئاً في الملجأ، لكن يكفي أن يصرخ أحدهم حتى يشتعل جسمي كله. يقف فجأة شعر رأسي، وتنتفض أعضائي على أسلاك معدنية مكهربة. تعود تلك القوة الباهرة تحقن جسمي كله وتنتره نترة واحدة، وتدفعه ككرة إلى الحائط. آخذ بالجعير وبطرق رأسي في الحائط حتى يفج. وحتى يصدر طنيناً عميقاً مقطعاً يعلو على أصوات القذائف الساقطة، ثم يمحو تلك الأصوات تماماً، ويحلها فيه، في لذة حدائه هو، الوحيد.

لكني الآن أعرف أني لم أعد كذلك.

fb/mashro3pdf

(٤)

لقد تغيرتُ كثيراً.

ليس فقط بالنسبة لليالي القصف التي لم تكن حزينة على نحو استثنائي، خاصة بعد أن صرت أرى أن الجميع يصبحون أكثر مودة ولطفاً إذ كنت أحياناً اتفرج على الممرضين يلعبون الورق، وينتهي الأمر بهم إلى إطفاء الراديو ولغطه الممل وإلى الكف عن سماع ملاحق الأنباء المتسارعة. كانوا يطعموننني ، وهم والراهبات، من سندويشاتهم الطيبة، ولا يعنّفونني على توسيخ ملابسي بالبندورة المنزلقة ممزوجة بالزبدة والمايونيز من بين الرقائق البيضاء. كنا

fb/mashro3pdf

نمزح. كنا نمرح كثيراً حين ينام الآخرون، ويهدأون تماماً. إذ ذاك كانوا يحادثونني كأني واحد منهم، وينظرون طويلاً في عيني. تقول الأخت سور فانسان دو بول: أنت صار يجب أن تخرج من هنا. فيهز الباقون رؤوسهم بأسف إذ كنت خرجت ثم عدت في مدة لم أعد أتبينها.

كان يخيل إلى أن الأخت فانسان دو بول الجميلة الشابة التي كلمتني ذات يوم بعيون دامعة عن سيرة حياة شفيعها فانسان ـ أو مار منصور ـ كان يخيل إلى أنها قريبة يسوع المسيح، ومن عائلته. كأنها تعرفه شخصياً وقد جلسا سوية هنيهات طويلة على مصطبة دار تعج بأهلهما المنصرفين إلى إعداد الطعام أو لعب الورق، فيما هما شاردان في الأفق البعيد يتكلمان بتؤدة عن المعذبين في الأرض.

كنت أحب تلك الراهبة، وأطيعها تماماً لأنها لم تكن تحترم القوانين كثيراً، وتتركني أحياناً أفعل ما لم يكن مسموحاً، كأن أسراراً كانت دائماً بيننا. فالأخريات كن قاسيات. وكأنهن هناك من أجل المستشفى. من أجل أبنيته وأروقته لا من أجل من هم فيه... وكن يحببن الأطباء أكثر منا بكثير وينظرن إلينا كأننا ضحايا وساوس الشياطين. لا يردن منا، خاصة في ليالي القصف، سوى أن نتكدس هادئين كالأموات لينصرفن إلى خوفهن، ولكي ينسين

fb/mashro3pdf

غضب الرب المتمثل فينا، في مسخنا إلى كائنات تشبه القصاص الماثل أمام المؤمنين عبرة.

لكن أنا كنت شيئاً آخر. وهن عرفن أنني تغيرت كثيراً. فحين ذهبت مرة باكياً، مجهشاً بالبكاء، إلى الأم الرئيسة وقلت لها مقبلاً صليبها أني أريد أن أستحم لوحدي، حدقت في طويلاً ثم حدّقت في ثم حدّقت الحائط ثم قالت لي: سوف نرى.

في البدء كنت أكره الحمام كثيراً. يأخذوننا بعد أن يسري مفعول الحبوب والمهدئات فينا، لكن جسمي الكبير لم يكن يستكين تماماً، فيجروونني جراً إلى غرفة كبيرة مع اربعة أو خمسة آخرين. يخلعون عنا ثيابنا القليلة ويجلسوننا أرضاً على البلاط المبلول. لا يلتفتون أبداً لسخونة المياه التي يدلقونها علينا بكثرة تمنعنا أحياناً من التنفس، تخض رؤوسنا خضاً. تكون باردة أو حارة جداً، فلا يلتفتون إلى ما نقول. نيأس سريعاً ونروح نمد سواعدنا للّيفة الخشنة. كنت اكره أن أرى نفسي عارياً. لكن أكره أكثر أن أرى الآخرين عراة، ولو أني كنت أعرف أن لا أحد يلتفت إليّ. يقلبوننا بسرعة ومن غير دراية، ويوجعون أجسامنا الهزيلة الشديدة البياض ولا يهتمون. ذلك لأن لا وقت لديهم لهدهدتنا ومراعاتنا فنحن كثر. والمياه قليلة جداً، تحملها السيترنات حين تتوافر، وحين يتوافر المازوت لتسخينها... ونحن كذلك كثيرو التشكي وكلنا نكره

fb/mashro3pdf

الحمام كثيراً، ونهلع من دلق المياه علينا.

والممرضون يضجرون من تقليبنا كالأطفال، إذا تغدو الأجسام ثقيلة عند البالغين، ولو كانوا شديدي الهزال. ربما إنحطاطها وخمولها يجعلها ثقيلة إلى هذا الحد. ونحن نحتج بأن نترك أجسامنا ولا نساعدهم فيزداد تعرقهم في البخار فوقنا، ويؤلموننا كأن عن قصد منهم... لكن الألم عندنا شيء آخر لا يعرفونه هم. لا يعرفون كيف نتوجع ولا كيف نرد الفعل على وجع أجسامنا، لذا يزدادون عصاباً منا ويروحون، من أجل أن يتسلوا، ويروّحوا عن أنفسهم. يروحون يمازحون بعضهم بنا وبأعضائنا، بأعضائنا الجنسية. يتضاحكون ويضحكوننا. نضحك معهم، ونحن نتفرج على ما يمازحوننا عليه كأنه ليس لأحد من الحاضرين. يبالغون في جسنا في تلك الأماكن كأن لها أهمية ليس لنا القدرة على استبانتها. وأكثر الأحيان كان ينتهي الحمام على ضحك كثير حتى نصير نرفض أن نقوم من أماكننا ونروح نردهم إلى ما يطيل الوقت. نروح نرد اهتمامهم إلى أعضائنا الجنسية. لكنهم مسرعون دائماً. ينهروننا ثم يحملوننا ملفوفين بالمناشف البيضاء الكبيرة. يلبسوننا الثوب الكتاني الأبيض نظيفاً بكامل أشرطته التي تقفله من الخلف ثم يسرّحون شعرنا قبل أن يعيدوننا إلى أسرّتنا لنأكل وننام.

أنا، كانوا منذ البدء يراعونني على نحو خاص. يشفقون على

fb/mashro3pdf

جسمي كثيراً. كانوا يقلبونه بتؤدة وأبقى بين يدي الممرّض حتى بعد أن يخرج كل الآخرين.

كانوا اكثر إشفاقاً عليّ في البدء لأن جسمي كان ناحلاً جداً على كبره وتخن عظامه، وكان ما زال يحمل آثار تعذيبه ولو قليلة وغير عميقة. فمعصمي الذي بقي مكسوراً مدلى لوقت طويل لم تعد إعادته إلى مكانه الأصلي ممكنة تماماً، وكذلك ظهري الذي بقي لوقت يعذبهم في الحمام إذ كان عليهم أن يبقوه ناشفاً والا تصل المياه إلى ضماداته. كانوا يرقون لي حين كانت تصل الليفة إلى بعض الانبعاجات، فيشيرون بأصابعهم ويكررون اسئلتهم دون إنتظار إجابتي: ماذا فعل بك هؤلاء العكاريت، ماذا فعلوا بك أولاد القحاب... انظروا هذا الجسم الجميل كيف صار، كانوا يقولون... لكنهم بعد مدة نسوا، ضجروا شيئاً فشيئاً صار جسمي يتعافى والآثار تُمحى... ضجروا كذلك حين صاروا يرون أني لا اعرف عما يتكلمون ولا أجيب على اسئلتهم. وداخلهم شك عميق بأني أشعر بالألم في تلك المواضع.

كان يحصل في أكثر الأحيان أن ينتهي الحمام على ضحك ومزاح... لكن ذات مرة بالغ الممرض الثقيل «نخلة» في مزاحه في الحمام مع جابر، لأن جابر مسلم وكان مطهراً ولا يشبه عضوه أعضاء الآخرين كثيراً، وربما أوحى التطهير بأن عضوه اكثر صحة من

fb/mashro3pdf

أعضاء الآخرين الهزيلة. ظل نخلة ببالغ حتى تقدم منه ممرض آخر، ودفشه عن جابر بالقوة، فعلقت بينهما في الحمام وراحا يتضاربان بالبوكس وينزلقان في أرض الحمام حتى خرج منهما الدم. ونحن مدهوشون، خائفون، ونصرخ حتى أتي الناظر وفكهما عن بعضهما وشتمهما وشتم نخلة على الأخص، ثم دلقوا علينا ماء بسرعة ونشفونا حانقين وأخرجونا. ولم يمشطوا شعورنا ذلك اليوم. في ما بعد صرت استحم لوحدي، وتقريباً حين أريد أو تتوافر المياه. وحين عاد جابر الذي خرج لمدة طويلة صرنا أصحابا. ليس بعد عودته مباشرة بالطبع ولكن بعد مدة. صرنا اصحاباً حتى أني قلت له ذات يوم: يا جابر قل لأختي أسماء حين تأتي في المرة القادمة، قل لها إنك أنا، فأنا لا أريد أن أراها...

fb/mashro3pdf

(٥)

كانوا يعتقدون أني مريض في عقلي، ويأسفون لحالي لأنهم اتفقوا أن كل ذلك أصابني لأني خُطفت مدة طويلة وعذبني خاطفي.

الطبيب الشاب وأسماء اختي والراهبات، وكذلك الممرضون، كانوا يعتقدون أن حادثة خطفي وتعذيبي، واختفائي الذي طال في المنطقة الغربية من العاصمة ـ حتى اعتقدوا إني مت ـ هي السبب. لقد أتوا بي إلى «دير الصليب» بعد أن اخرجوني من مستشفى «أرزة لبنان» حيث بقيت... لم أعد أدري كم من الوقت. أخبرتني

fb/mashro3pdf

اختي أسماء كل ذلك وكأنها قصة رجل آخر، لا أعرفه، وبذهنها أني كنت غائباً تماماً عما يحصل لي.

كانت أسماء، إن أعادت رواية ما حصل لي على، وهي قد أعادتها كثيراً، تبدل وتغير في روايتها. كنت أتساءل إن كانت تفعل اختي ذلك عمداً. لتختبر درجة وعيي وتركيزي، ولترى إذن، إذا ما كنت سأكتشف تلاعبها. أو أنها كانت تعدل فتنقص وتضيف لغرض في نفسها. أو تراه لسهوها ونسيانها هي أيضاً. أو لزيادة إنشغالها وهمها على، لإفهامي بأنها تحبني وتريدني أن أعود إليها. إلى المنطقة التي تعرفها لي. لذا كنت استمع إلى أسماء بدهشة من يستمع للرواية للمرة الأولى فعلاً، فيتأكد ما بذهنها من أني كنت غائباً آنذاك عما يصيبني وما زلت غائباً... وتروح من جديد تعيد الكرة.

كنت أعرف أني في المستشفى ـ حين كنت في «أرزة لبنان» ـ ثم أنسى، خصوصاً حين كانوا يلحون على بالأسئلة... وحين كانوا يتحادثون حولي، دون دراية، عن سبب مرض عقلي. الذي يردونه، بإلحاح وحنق عظيمين، إلى خطفي وتعذيبي في أقبية المنطقة الغربية من العاصمة.

ففيما كنت نازلاً، ذلك الفجر، أغني في عرضان الجبل، والشمس موشكة على الشروق، استوقفني شباب كانوا يقطعون الجبل في

fb/mashro3pdf

الوعر مثلي. لم أتبينهم إلا حين اقتربوا كثيراً إذ كانت ثيابهم مرقطة تموههم مع الحجارة والأعشاب.

رأوا آثار دماء على قميصي، فأحاطوا بي من كل الجهات، وراحوا يقتربون على مهل موجهين بنادقهم إلى صدري. ثم عروني من ثيابي وأركعوني على الأرض ويداي مشبوكتان فوق رأسي. انحرف مزاجي قليلاً وقررت أن لا شأن لي بهم، وأني لم أكلمهم. فتشوا طويلاً في ثيابي ولما لم يجدوا فيها أي أوراق ثبوتية راحوا يتحادثون فيما بينهم كأني غير موجود، فقلت في نفسي: حسناً. سكتوا قليلاً ثم هجموا على وراحوا يضربونني ويسألونني. وأنا أفكر يائساً وضجران في تعاسة هذه المصادفة التي جعلتني التقي هؤلاء البشر في تلك اللحظة العارمة بالسعادة بالذات. في اللحظة التي قبضت فيها على روحي الطازجة الكاملة الطاهرة، الوليدة لتوها. في تلك اللحظة بالذات، حين لم يعد لي أي علاقة بهذا العالم كله. في اللحظة التي كنت أسبح فيها فوقه، وأراه يكر ويسيل تحت قدمي وتحت غنائي. يا الله. يا الله. كنت أقول وهم يضربون.

ظلوا يضربون طويلاً ولكن، هكذا، في لحظة واحدة، عرفت حقيقة مدهشة جعلتني أدرك أني لم أضيع سعادتي تلك أبداً. في لحظة واحدة، هكذا، عرفت وأنا أنظر إلى الدم يطرش من فمي إلى

fb/mashro3pdf

كامل جسمي العاري بأن ألمي ليس ألماً ليس كذلك الذي عرفته في السابق والذي كان يجعلني، على قوتي، أجعر وأحنق إذا ما ضربت ركبتي سهواً بزاوية حادة... صرت أرى الوجع كما في الحلم. أنا ولست أنا. جسمي وليس جسمي. وكأنني أتفرج. وكأن لي جسمين ليس كهذين الجسمين الماضيين اللذين كانا يعذبانني في افتراقهما، وفي اجتماعهما، جسمان اثنان، ولكن آخران. مختلفان.

كانوا يضربون، وكنت أنظر ولا أصدق. يخبطون على فأقع وأرى الحجارة الصغيرة قريبة جداً من عيني، واسمع صوت تنفسي في التراب المتطاير الملتصق على دم أنفي، وكأنني أتفرج، وأتابع الملاحظة الدقيقة بما يشبه التشويق. يرتج جسمي عند خبطه، لكن الوجع يبقى مكان اللطمة. لا يصل إلى رأسي ولا إلى قلبي. حين رأيت ذلك رحت أضحك. ربطوا يدي ورجلي وحملوني إلى مكان بعيد.

عندما استفقت وجدت أنهم ربطوا وسطي بخيط رفيع متين شدوه كثيراً. كنت مطروحاً أرضاً لوحدي في مكان مظلم. عرفت بأني انتفخ وأتورّم، بسرعة. كانوا بين وقت وآخر يأتون إليّ. يجلسون بقربي ويحاولون بالهداوة واللطف حملي على الكلام لأتخلص مما أنا فيه. أحياناً ينظرون إليّ بدهشة، وأسمع أحدهم يقول بأني مجنون فعلاً ولا أصطنع، فيجيبه آخر بأني رجل خطير وكذاب وبأني قد قتلت أحداً.

fb/mashro3pdf

ويريدون معرفة قصتي في أحيان أخرى كانوا ينتهون إلى وجوب قتلي، والتخلص من رائحتى، لكنهم سرعان ما يعودون إلى الضرب وإلى طرح الأسئلة. تكلم... تكلم وأنا رأسي أبيض، ليس في داخله سوى رغبة أن أستمر بأغنيتي التي كنت مستغرقاً في أنغامها. هابطاً عرضان الجبل، في ذلك الفجر الجميل...

تكلم.

أي كلام؟ أي كلام يا أخوتي؟

ثم يحنقون. يحنقون أو يخافون منيي ويضربون بقوة، وأنا أنظر مكان ضربهم، ولا أتبين في العتمة غير القليل.

في نسياناتي الكثيرة لم أعرف كيف ومتى نقلوني إلى غرفة مظلمة حيث وجدت نفسي مع آخرين، كنت أحسن حالاً هناك في أوجاع جسمي لكن كنت كثيراً ما أصاب بالإسهال. كنت أنام كثيراً واستيقظ أحياناً لأجد أن رفاقي قد تبدلوا وبأن الوجوه التي أراها ليست تلك التي تركتها بجانبي قبل أن أنام.

جاءوا ذات يوم وفي أيديهم بدلات رياضية كحلية اللون، جميلة وذات خطوط بيضاء. فرحت لما رأيت الشاب الذي يحبني ويمازحني دائماً، معهم. هذا الشاب كان يدللني ويأتيني أحياناً بألواح من الشوكولاته الطيبة، ويعطيني حبوباً لمنع الإسهال ويحادثني. أعرف أنه أحياناً كان يضحك مني، ويهزأ من منظري مع رفاقه، لكني كنت

fb/mashro3pdf

أحس بأنه يحبني، أقول بأنه يسايرهم ، وأشعر بالرضا حين يكون موجوداً، واشتاق إليه إذا ما تأخر على.

غسلوني ذلك اليوم دون تأفف أو صراخ وضرب. وألبسوني البدلة الرياضية وقالوا سنعيدكم إلى أهلكم في عملية تبادل مخطوفين، فاستعدوا. رجل بجانبي راح يبكي فرحاً ويشكر ربه مجهشاً بصوت عال. بحثت في رأسي طويلاً وأنا أتساءل ماذا يعني أنهم سيعيدوننا إلى أهلنا، حتى وجدت أسماء. وأدركت أنهم سيعيدونني إلى أسماء.

كلنا كنا فرحين، ما عدا واحد. وفيما أنا أنظر إليه متسائلاً تذكرت أنه هنا معي منذ وقت طويل. تذكرت، الأستاذ الجامعي لكثرة ما كرر أنه أستاذ جامعي، وأن لا دخل له بشيء، قبل أن يقرر الصمت نهائياً، مثلي، تقريباً مثلي . هو فقط كان خائفاً ومتوتراً. وحين سألوه قال يا أغبياء سوف يقتلوننا. سوف يخرجوننا من هنا ويقتلوننا. قال له الرجل الذي كان يشكر ربه وينحب: لماذا تقول ذلك... هل أتونا بالبذلات الرياضية ليقتلونا ؟

مر وقت طويل ونحن بالبذلات الرياضية ننتظر. ورحت أنا في النسيان.

fb/mashro3pdf

(٦)

كان الوقت ليلاً حين أدركت أننا في باص يتعرج بنا مسرعاً في طريق مهدّمة وقاحلة تماماً، وبين أعشاب برية كبيرة تخبط بقوة على زجاج النوافذ. كنت أسمع عواء كلاب كثيرة كانت ترافقنا نابحة، تظهر فجأة من العتمة الحالكة، وتشرئب وراء الزجاج فاتحة أشداقها الكبيرة. ثم تتوقف في أمكنتها وتواصل النباح.

توقف الباص وأطفأ أضواءه. نزل حراسنا منه ما عدا واحداً مكث يراقبنا. لبثنا صامتين تماماً. وكنت خائفاً. أنا والأستاذ الجامعي الذي كان شاحباً ويرتجف بقوة في مكانه. بعد قليل، طلع رجل من

fb/mashro3pdf

الصليب الأحمر ومعه شاب أجنبي أشقر. راحا يتكلمان بالانكليزية ويهزان رأسيهما أسفاً وهما يتفحصاننا عن قرب.

أنزلونا من الباص وصفّونا، ظهورنا لصق معدنه. أردت أن أمشي لكن حارسنا نهرني، فعدت إلى مكاني. كان الصمت ثقيلاً حتى أني سمعت بول الأستاذ يخر على التراب مخترقاً رجليّ بنطاله. قلت لهم: هذا بال في ثيابه ووسخ بدلته النظيفة. اقترب رجل الصليب الأحمر مني وقال اسكت الآن لا بأس. قال له الأستاذ هذا الرجل مجنون. كمّموه وربّطوه لأنه سيتسبب في قتلنا جميعاً. كانت الكلمات الخفيضة تخرج بالكاد من فمه لشدة ما كان فكه يرتجف. قال له رجل الصليب الأحمر، إهدأ، لا بأس.

رحت أهز رأسي أسفاً، وأضحك في صدري ضحكات صغيرة راحت تهز جسمي وبالكاد أستطيع تمالكها، فيما الأستاذ يردد: أبوس رجليك ارحمنا. ابوس يديك اشفق علينا...

سكت تماماً ورحتُ انتظر بصمت واحترام كالآخرين. اقترب مني رجل الصليب الأحمر، وتفحص يدي المربوطة بقماش نظيف. لم أتركه يلمسها. ابتعد عني ورحت اتفرج على الطبيعة، ولا أرى شيئاً في العتمة الحالكة.

في الناحية الأخرى أناس مثلنا ينتظرون الآن. رحت أتساءل كيف سيبادلوننا بهم. ستكون هناك ساحة واسعة، مضاءة ومكشوفة لكي

fb/mashro3pdf

تكون الرؤية واضحة. لابد وفي وسط هذه الساحة التي تشبه الملعب الكبير سيقف رجل مهيب. يجب أن يكون مهيباً ليؤمن به الجميع، هنا وهناك. يحمل هذا الرجل شيئاً، علماً مثلاً، يرفعه ويتلو اسماً من هنا واسماً من هناك، فيتقدم المعنيان من الظلمة إلى الضوء بتؤدة حتى يصلا إليه. سيقول لهما شيئاً لا أدري ما هو، ثم يتصافحان، لا بد. وإذ ذاك يصفر الرجل بصفارته المعلقة على صدره، ويرفع علمه. في اللحظة نفسها، يركض الرجلان المعنيان بالتبادل كل في الاتجاه المعاكس للإتجاه الذي خرج منه في الظلمة، ويصلان في الوقت نفسه . كل إلى أهله، ليتعانق الجميع... وهكذا دواليك حتى يتم تبادل جميع المخطوفين. ثم قلت، ينبغي أن يكون الرجل المهيب من الصليب الأحمر. لابد. وربما الصليب الأحمر العالمي ـ أي الأجنبي لا المحلي، لمزيد من الصدقية والموضوعية، ولكي لا يشك أحد بنزاهته. ولما تخيلت هذا الرجل وجدت إني أراه في لباس رياضي مناسب لبذلاتنا الرياضية ولكن مختلف عنها... ثم رحت أضحك...

سكت بعد أن نهروني وعدت إلى صمتي. ثم حزنت لأني انتبهت إلى أن صورة تبادل المخطوفين التي تخيلتها لا تلائمني لأنني لن استطيع الركض بجسمي هذا. وستزعل أسماء أختي كثيراً، وستقول في نفسها، ها هو يتأخر عن رفاقه كالعادة، كما كان دائماً وأينما

fb/mashro3pdf

كان، يتأخر عن الباقين.. ويقع قبل خط النهاية.

ثم لعلع الرصاص.

يا إلهي. يا أمي، صرنا نصرخ. جذبني رجل الصليب الأحمر من ياقة سترتي، طرحني أرضاً، وظل يجرني حتى صرنا جميعنا تحت الباص، وبين عجلاته.

راحت القذائف تنفجر ونحن نندس ببعضنا البعض والرجل الأجنبي يقول: اوه شيت ـ أوه شيت ـ إيتس إمباسبول ـ أوه غاد.

وبعد أن هدأت الحرب أعادونا إلى الباص وقالوا فشلت عملية تبادل المخطوفين. قالوا ذلك في أجهزتهم بعد أن توقف الباص بنا. أنزلنا حراسنا بالخبيط واللبيط بعد أن ذهب رجال الصليب الأحمر.. حشرونا في غرفة غير تلك التي كنا فيها. طار عقلي حين أرادوا أن يستردوا البذلة الرياضية. قلت هذه ليست لكم . إنها من الصليب الأحمر ولن أعيدها، ورحت أتخابط معهم، حتى تركوها لي. خرجوا واقفلوا الأبواب والشبابيك وهم يشتموننا...

قال الأستاذ الجامعي وهو يبكي. كنت أعرف. الآن سوف يقتلوننا لأن ليس لدى جماعتنا مخطوفون. لقد صفوهم. قتلوهم كلهم. أنا أعرف... يا ويلي... حين سمعناه يقول ذلك بإنفعال صدقناه... وراح بعض الرجال يبكي ويقولون: الآن سيقتلوننا معك حق...

fb/mashro3pdf

لكنهم لم يقتلونا ما عدتُ أذكر أبداً كيف تم تبادل المخطوفين، وكيف بادلوني، ومن كان معي، ومتى، وفي أي وقت جرت العملية التي تكللت بالنجاح، لابد . ذلك بسبب نسياناتي الكثيرة.

أفهموني أني في مستشفى «أرزة لبنان»، وأنهم أعادوني إلى أهلي بعدما خطفت وعذبت ثم بادلوني. وراحت أسماء من يومها تخبرني القصة وتكرارها. كل مرة قصة جديدة وفي بالها إني كنت غائباً تماماً عما جرى لي... والجميع متفقون أن سهياني، ثم مرض عقلي هو نتيجة خطفي وتعذيبي ، وتروح أسماء تروي لي مجدداً..

fb/mashro3pdf

(٧)

من غير المعقول ألا يميل النبات ناحية الضوء، وألا ينجذب إليه.

أروح وأجيء إلى النافذة، لما أمامها ولما وراءها. لدائرة الضوء التي تقع على البلاط الأبيض، والفسحة التي يتركها لي الآخرون لأنهم لا يحبون الضوء. قبل ذلك، كنت مثلهم. كان يؤذيني هذا البياض المبالغ فيه، والذي تعززه الجدران والأرضيات. تعزز البياض إذ هي لا ترده ناشفاً هادئاً، ممتصة إبره الكثيرة الطويلة النافذة حتى مؤخر الرؤوس، بل تعكسه ملتمعاً حاداً ومسنوناً. فالبلاط والجدران

fb/mashro3pdf

المدهونة بالبويا اللماعة التي يسهل غسلها، كانت تجعل الرؤوس نقاطاً حارقة لإنعكاسات آلاف المرايا المتحركة المتذبذبة التي تحيط بنا. كنا مطاردين بالضوء والبياض، محاصرين به كالحيوانات المتوحشة في الفخاخ. لا نعرف له دواء لا بإغماض العيون، ولا بإدخال الرؤوس في الزوايا وتحت الأغطية. كنا مكشوفين لعنفه وأذيته حتى في الليل، إذ يتركون الأنوار مضاءة. وحتى حين تنقطع الكهرباء. كانوا يرفعون فوق رؤوسنا اللمبات الغازية الكبيرة. أو تلك الصغيرة جداً كذرة دائمة الإشتعال والتي كانت تغذي بالبطاريات، ولم نكن نستطيع أن نحيد أعيننا عنها. كيف لم ينتبهوا إلى أن الضوء كان مصدر تعذيب دائم لنا، يبقي اعصابنا مشحونة إلى أقصى شعيراتها الفالتة كقساطل مثقوبة الطرف لا سبيل إلى ضبط دفقها المكهرب. لسعة واحدة طويلة ولا تنتهي، لنلتصق بالزوايا نحشر عيوننا وأعضاءنا ما استطعنا، حتى ننسلخ عن ملوستها ونقع عنها كالحلزونات المنتفخة المتخمة، ثم نعود إلى المساحة الوسطية المكشوفة.

يعمينا الضوء حتى نستسلم له، وحتى يبدأ البؤبؤ في أعيننا دورانه الغريب في كل إتجاه بحثاً عن داخل العين المظلم. عيوننا فقط تواصل بحثها المضطرب عن كيفية هربها من الضوء والبياض، حتى من أبيضها نفسه، تتقرح القزحية ويتنطط الجفن في موضعه،

fb/mashro3pdf

ووراء ستاره المالح الرطب، او من دون ذلك الستار يواصل البؤبؤ دورانه وإنشداده نحو داخل الرأس حيث العتمة الفاترة، تاركاً لضوء الخارج بياض العين الذي يتآلف معه.

كل شيء كان أبيض ومضيئاً أكثر من احتمالنا. الجدران، البلاط، الأسرة، الشراشف، الطاولات، درف النوافذ، زجاج النوافذ، شبك النوافذ، النوافذ، الأطباء، الممرضون، الراهبات، أجنحة الراهبات، التي كانت ترفرف بطيئاً وهن يمررن على قطن الهواء الأبيض أحذية الراهبات التي نادراً ما كانت تترك لنا، وفي أوقات الحر الشديد فقط، أن ننظر إلى عري أقدامهن والي شكل أصابع أقدامهن التي حفظناها في التواءاتها وتيبّسها عند العجائز وفي لينها وانتظامها اللطيف وطراوتها عند الأخت فانسان دو بول، القديسة الجميلة حتى أصابع قدميها.

أيام الشتاء كنا نرتاح قليلا، إذ تحنو السماء وتكفهر، وتنسحب من رؤوسنا تلك الإبر الدقيقة. وحين تمطر كنا نطرب لذلك الصوت الخارجي اللذيذ الذي يلف الابنية والتلة بكاملها، ونروح نتابع خشخشته اللطيفة على السطوح وأوراق الأشجار والنبات، وعلى أرض الممرات اللماعة. حين تمطر كنا، لابد، نذكر أصواتاً كنا نعرفها في الزمن الماضي، ودون أن نتبين مصادرها الحقيقية، كانت تحملنا الي غير ذلك المكان الذي نحن فيه. الي أمكنة كنا فيها

fb/mashro3pdf

صغاراً، تحت سقف شرفة على طريق مدرسة ما ومحافظنا الجلدية فوق رؤوسنا. أو قرب مدفأة بين اناس يعرفوننا ونعرفهم حتى يصير الكلام من حولنا لغط أصوات تنزل على جلودنا كالأغطية اللطيفة وننعس تحتها. حين تمطر، كنا نهدأ إذ تنقلنا الخشخشة اللطيفة الى أمكنة نعرفها دون أن نتبينها فنشم روائح أليفة تشبه مياه الحمام الدافئة التي تتبخر بتؤدة فوق رائحة كاز البوابير مرسلة حشرجة لطيفة أمام باب حمام نغطي نافذته الوحيدة المطلة على السهل بثيابنا الوسخة قبل أن تدلق امهاتنا المياه الساخنة على الأرض، كي لا تجفل أقدامنا من البرودة. أو كنا، على صوت المطر، نقف عند أبواب الأفران الدافئة ننقل الأرغفة الساخنة من يد الى يد ونحن ننظر الي السماء، نخاف أن يبتل الخبز الشهي ونحن نقضم منه ونحتار كيف نوصله قبل أن تلتصق فلقاته، وقبل أن ينطفئ بخاره الجميل.

نهدأ حين يخشخش المطر على السطوح، إذ نسمعه على سطوح أخرى، بعد ظهر أحد ما، ونحن بين اولاد خالتنا نكر ضحكاً مكبوتاً ونختبئ تحت غطاء صوف كبير في عتمة أنفاس أفواهنا الكثيرة.

حين نسمع خشخشة المطر نقف في أمكنة بعيدة. نقف هنيهة قصيرة وبائدة، لكن دائماً في طفولة ما مضت لانعرف منها سوى مفاجأة طعم بعيد تتركه في حلقنا، طعم يرجع سهلا ولا يقيم. يرجع

fb/mashro3pdf

سهلاً، ويغيب سريعاً، ويتركنا في دهشة وحيرة من أجسام كبيرة نجدها أمامنا، كأن فجأة، ولا نعرف لها وظيفة أو استعمالا. أجسام لا نألفها حتى نقدر على تطويعها. تغيب عنا، وننساها لنعود ونجدها أكثر هرماً وابتعاداً وغرابة. وأكثر صعوبة، حتى في ضعفها واستسلامها، على التطويع والتدجين والتبني. فننفر منها، إذ ندرك ابتعادها المستمر عما كانته حين كنا، في طفولة ما، نسمع خشخشة المطر على الأشجار والسطوح وعلى الطرقات اللماعة.

أقف قرب النافذة لأنني ماعدت مثلهم. كي ابتعد عنهم وانساهم وأنسى كم أني أشبههم. لأنسى اشتباك جسمي في أجسامهم وضياعه فيها. في كثرتهم وخوفهم من البياض وفي اخراطهم وامتثالهم وفي مثولهم أمام غضب الرب كماشية انزل فيها قصاصه. أنزل فيها شكله الناقص. كماشية من الخراف الضالة التي انتقاها على مهل وأفردها إفراد البعر المعبدة، ولم يسع الي استعادتها الي قطيعه المبارك الذي يبرطع خارجاً والذي يرتع في النعمة المسبغة عليه، يرتع في الغفران وفي محو الأخطاء ونسيانها ورحمتها.

هؤلاء الذين في الخارج كانوا الأبرار الذين يفعلون ما يطلبه منهم الرب ويطيعونه في السلم كما في الحروب الأهلية. لم يكن يضجر منهم ولم يكن يقول إنه حصتنا، نحن النعاج الضالة. لم يكن رجاءنا. كنا القصاص الذي زهد فيه، ضجر من أصفره العليل وأعضائه

fb/mashro3pdf

الضعيفة المسلولة ومن هذيانه وتقرحاته، وضرب رأسه في الحائط، وجعيره في الليل كذئب كريه يضرب صوت عوائه سهر إلفة وعشق. وهم، هم في الخارج، النعاج المباركة، ظلوا أكثر تسلية منا. أكثر حركة وضجيجاً وتغيراً فغير الرب رأيه ومعسكره وجلس معهم، بينهم، كأب... وتركنا، تركنا لجسومنا ولذلك الأبيض المضيء ينزل فينا من غضبه ومقته.

لذلك، عندما خرجت لم يطل بي الأمر حتى عدت الي هنا.

ثم عرفت ان الربِ لم يتخل عني.

fb/mashro3pdf

(٨)

أقف أمام النافذة، لما أمامها ولما وراءها.

لذلك الضوء الذي يشد اوصالي الى الحرارة والنقاء، والى حيث استطيع أن اتابع الغبار الساري في عضو الحزمة المنفلشة على الأرض حيث أضع قدمي الحافيتين لتدفأ ولأتأملها لساعات طوال. لألاعب أصابع قدمي وأعبث بالأظافر وبالجلد الأبيض المتكلّس حولها وعليها. لتكون تلك المساحة لي وحدي، ولأوقن، وأنا فيها، بأني لم أعد مثل الباقين الذين في الغرفة، في زواياها أو على الأسرة أو تحتها.

حين اسمع خشخشة المطر، أقف وأنظر. أقف إلى النافذة أسند

fb/mashro3pdf

رأسي الى حديدها المشبك الذي يحمينا من الزجاج ونصوله. الزجاج الذي يتركني أرى، ولا يمزجني بما أرى. أطل على الحديقة التي يقطعها لي الشبك الحديدي الأبيض الى مربعات كبيرة، كما حين كنت أفعل ليسهل على رسم خارطة الجغرافيا، ولكي أحافظ على المساحات مضبوطة صحيحة. اقطع الحديقة الى مربعات، وأتابع تفرجي عليها قطعة قطعة. حتى تنطلق عصافير جميلة بين الأشجار المبتلة، فأتابع طيرانها. أو حتى أخرج فجأة من المربع الى المساحة كلها، إذ هكذا يحدث لي أحياناً عندما أراها.

أراها جالسة في الحديقة. على الأرض تحت شمس ساطعة. جالسة هكذا لا تتحرك ولا تفعل شيئاً. أنسى أنها ميتة. أنسى ذلك تماماً. أو أني لا أعرف أنها ماتت. أظل انظر اليها وانتظر. انتظر حتى تلتفت نحوي، حتى تعرف اني هنا أو حتى تقول شيئاً. ثم انتظر أن تتحرك لأري ماذا ستفعل حين تتحرك. ثم أنسي انها أمامي واني اتابعها من وراء النافذة. ثم أتذكر وأراها، وتستمر هي في سكونها. فاضجر وأعود عن النافذة وأقول لنفسي أنها صورة أراها. صورة غير حقيقية . وأعود الى النافذة فلا أراها. ارى المربعات البيضاء والمطر. أو أراها تحت الشمس الساطعة مازالت هناك. ولا تتحرك . إن حزنتُ لا أحزن كثيراً وإن فرحت نسيت أحياناً فرحي. لا أبتئس حين أرى تلك المرأة في الحديقة وراء النافذة، ولا

fb/mashro3pdf

أفرح وأهلل لرؤيتها بعد زمن. فقط أحتار وارتبك. احتار وارتبك أين أضع تلك المرأة في داخلي وهي هكذا مقيمة جامدة أمام النافذة. أين أضعها في داخلي. في أي منطقة أفرد لها. في الفرح أم الحزن. في الذكرى أم في النسيان . في الرغبة أم في الضجر. في الشوق أم في ملل التكرار. تكرارها. تكرارها. تكرارها علىّ.

غالباً ماكنت، حين يطول قعودها في الخارج دون حراك، غالباً ما كنت أبكي . أبكي طويلا وعالياً ولم أكن أبداً أدري أهو بكاء من العذاب والقهر أم من السعادة العارمة.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل الثانى

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(١)

رأيتها عند بائع الخضار قريبي في ساحة القرية.

ارتج صدري بقوة وقلت: مستحيل. هذه امرأة تشبهها. كنت على الرصيف المقابل وبعيداً عنها. رجعت إلى الوراء متستراً بالمارة أردد: هذه امرأة تشبهها. ثم رحت أتقدم ببطء خشية أن تراني، لكنها كانت منهمكة تماماً. صرت على مقربة منها بعد أن تأكدت أن السيارة التي بيننا تحجبني عنها تماماً حتى لو استدارت تنظر في كل الإتجاهات.

كانت منهمكة بملء أكياس كثيرة بالخضار والفاكهة. ابتسمت للنساء اللواتي كن يشاركنها التقليب في صندوق واحد وتبادلت معهن أحاديث قصيرة. نظرت إلى يديها المتسختين، مسحتهما بكيس ورق. تحدثت إلى قريبي بائع الخضار بمرح ظاهر. ساومته قليلاً، ثم دفعت. رفع أكياسها الكثيرة إلى صندوق سيارة صغيرة.

fb/mashro3pdf

صعدتْ إلى السيارة وضعتْ نظارات شمسية. تلفتت كثيراً قبل أن تخرج بسيارتها في زحمة السوق. وغابت.

لم أسأل قريبي بائع الخضار عنها. كان سيطرح الكثير من الأسئلة.أقول له إنها كانت صديقتي في الجامعة. فيحدثها إذن عني. هكذا لطق الحنك. يقول لها أتعرفين... صديقك في الجامعة هو قريبي. فلان الفلاني. ويدلها عليّ حين يراني على مقربة من دكانه. أو يلحظ أني أرقبها من بعيد ولا أتقدم للكلام معها.

لم أسأل قريبي بائع الخضار عنها لأني عرفت أنها تتردد على دكانه دائماً. هذا واضح. ثم لم أكن واثقاً من أني أريد أن أكلمها أو أراها ثانية.

في اليومين التاليين لم تتوقف عن الرواح والمجيء داخل رأسي. أفاجيء نفسي مبتسماً ببلاهة. ساهياً على فراغ وهشاشة. متبطلاً متردداً عن الإجابة على أي سؤال. تسألني اسماء هل تريد قهوة فأفكر طويلاً قبل أن أجيب. افكر طويلاً إذا ما كنت ارغب في تناول القهوة. ثم اعود إلى الحديث مع زوار انتبه فجأة لوجودهم بقربي مبتسمين تحت دالية بيتنا. ابذل جهداً حقيقياً للدخول في الحديث. ذلك الحديث الذي يتجاذب اطرافه زوارنا تحت دالية المصطبة. ذلك الحديث الذي يروح ويجيء في مكانه، بين أرجلنا وفوق رؤوسنا تحت الدالية. ويتمطىّ ويرد إلى ذلك الشعور العميق الذي يلازمني منذ كنت طفلاً، بأني كائن خرافي. لأني غير موجود بينهم لشد

fb/mashro3pdf

طرف الحديث الذي يخصني، الطرق الممدود صوبي. لأني حين أكون بينهم. لا أكون بينهم بل على حدة. اتطلع إلى ما لا يتطلعون إليه: أتطلع إليهم. أتطلع إليهم ولا أكف عن التساؤل لماذا أتوا. لماذا يأتي الزوار. ولا أقتنع أن الزيارة تجعلهم أقل ضجراً. كنت دائماً أحب أن أري زواراً في بيتنا، لكني لم أكن أحب أن أشارك في الحديث. حين كنت صبياً، كنت ادخل وأخرج بين الزوار، فلا ينتبهون إليّ. أفرح بهم إذ ينصرف الجميع عن الجميع وأفعل ما يحلو لي. أجد بيتنا أكثر جمالاً وترتيباً. وكذلك أهلي أكثر مودة ولطفاً وتساهلاً وتهذيباً. وبين الجميع طاولات صغيرة، عليها صحون فاكهة جميلة وفناجين قهوة وعلب سجائر ملونة. حلوى أو ملبس أو بزورات طازجة على مفارش منشاة لا نبقيها على الطاولات بعد خروجهم. عيد صغير لست معنياً به، وأطايب سيبقى منها الكثير لأتذوقها على مهلي، في المناديل الورقية، ولاطعم منها أصحابي وأتباهى، لكني كبرت وصار ينبغي عليّ أن أجلس مع الزوار. كبرت فصار لي طرف آخذ به الحديث، لابد. طرف لي، لا أحد يأخذه عني أو يسايرني بإهماله أو تناسيه.

في اليومين التاليين لم تتوقف عن الرواح والمجيء داخل رأسي. صرت أقول إنه الضجر، إذ لم تكن تلك المرأة يوماً مهمة في حياتي. في لقاءاتنا الأخيرة كنت أشعر أنني أتخفف منها بسهولة تقارب الجذل. أشعر أني اتخلص من ثقل لم يكن له أي مبرر. صرت

fb/mashro3pdf

أرى أنها ليست جميلة ولا تستأهل حتى الجهد الذي تتطلبه مغامرة صغيرة عابرة. وهي ليست ذكية لتمنحني متعة اللعب والمناورة وليست شهية لتحفزني على احتمال غلاظتها ودبقها وتخلفها العقلي والعصبي وهي تستعمل الكلمات الكبيرة المهمة والأدبية لكائن يعتبر نفسه مثقفاً وأمام مرحلة دقيقة ومهمة. سوف يتذكرها كثيراً. ولذا فإن رصف الكلمات في الجمل يجب أن يأتي فريداً شديد التأثير.

أذكر أني كنت أستمع إلى القليل مما تقول وأنا أتأملها مُظهراً الحزن أو التفهم أو الاثنين معاً. كنت متأكداً أني لن أراها ثانية حتى أني، بدل أن اضحك وأصفق عالياً، رحت أرجوها. تقريباً أرجوها، ألا تتخلى عني. رحت أفهمها، أوحي لها بأني متألم لأني مغرم بها غراماً شديداً، لكني مستسلم لقدر قراراتها لأن كل ما في الحياة يدعوني إلى اليأس الشامل. ما كان يدعوني إلى اللعب، إلى الكذب عليها، هو ضجري منها، واحتقار صغير لكل الكائن الذي فيها، والذي قبالتي، كان يرسم لوحة أهميته وثقله الأقصيين، كنت أقول هذه المرأة البائسة لن تعطي فرصة اخري كهذه للشعور بأهميتها. كنت أمنحها هذه الفرصة لا شفقة عليها، ولكن إدراكاً مني بأنها ابداً لا تستأهل أن أُخرج أمامها ما هو بداخلي، أن أتركها ترى حقيقة ما يخطر برأسي. لأنها لن تفهم منه شيئاً. لأن رأسها الصغير، الواضح الجوانب كعلبة كبريت، سيقول لها إني حقود. وأن

fb/mashro3pdf

كرامتي الرجولية تأبى القبول بأن تتركني امرأة. لو كنت مغرماً بها لكان الأمر دراما حقيقية. هكذا كنت أردد في نفسي وهي قبالتي تتغرغر بدمع تروح تبتلعه عن قصد مكشوف. كنت اقول يا إلهي أي تعاسة كانت ستركبني لو كنت فعلاً مغرماً بهذه المرأة المسكينة. كانت ترصف الكلمات وهي تعي أنها للذكرى. للخلود.. ترى نفسها وتراني أنا، كهلاً، استرجعها بحسرة كبيرة، وأردد أنها المرأة التي لم استطع نسيانها. الوحيدة بين النساء. انظر إليها وأقول: كل النساء يتحركن في فيلم، دائماً في لحظته القصوى. في لحظة إلى الأبد. التي ستدوم إلى الكهولة. إلى كهولتي أنا بالذات. كهولة البطل. كانت ترصف الكلمات وتترك فراغاً ليطبعها في ذاكرتي. تنتقيها للمرأة الأخرى، للبطلة، كل لحظات الوداع تعكس لحظة وحيدة وترد إليها. لحظة وداع واحدة عمومية، للجميع. وتتشابه في كل الأفلام. ونستجمعها ونسويها مهما كانت موزعة. نرى أنفسنا على شاشة كبيرة. نضيء بأحزاننا. تخرج أصواتنا من مكان كبير قبالتنا، من زمن الذكرى الآتية الواسع. نسمع أصواتنا آتية إلينا من حزننا ومن أسانا المقبلين لا محالة. نسمعها off متحولة ومتغيرة عبر الأشرطة الكثيرة الطويلة التي ستعبر في شعيراتها الدقيقة ثم تنفلش. اللحظة الوحيدة للوداع لأننا نزدوج. نرى أنفسنا الآن ونرى الحزن على أنفسنا. تلك الشفقة المقرونة بشجاعة وستويسية الخالدين. ستويسية زينون الرواقي... نتمشى معه في الرواق

fb/mashro3pdf

الطويل الذي يسمع وقع اقدامنا، ويشهد لرباطة جأشنا، ونحن نقترب من آخر الرواق. أنا وهي وزينون في الرواق. ومعنا جميع الأبطال في فيلم الوداع الوحيد. ومعنا الغرام في حشرجاته الأخيرة.

كنت أفكر في كل هذا وهي أمامي. أهز رأسي أسفاً وحزناً وتفهماً واتساءل كيف يمكن أن أسمعها عالياً ما أفكر فيه. وهي تنكس رأسها الصغير اللطيف كسارية مكسورة في أمواج عاتية. أمواج عاتية في وعاء . وعاء الطاولة التي بيننا.

كنت اعرف جيداً أنها تكذب. لعل هذا هو السبب الحقيقي. كل لحظات الوداع كاذبة كهذه، إذ هي في أحد احتمالين: إما أنها لا تحبني، لم تحبني، أو أنها هكذا، لسبب ما أو بدون سبب كفت عن حبي. وإذ ذاك تتركقب لحظة الفراق، أو الوداع، على عنصرين، شخصين: واحد يريد أن يتخلص من الآخر مفترضاً بالطبع أن هذا الآخر سميك الإحساس لدرجة أنه لم يشعر بأن الأول كف عن حبه، وينبغي إذن إفهامه ذلك بصريح العبارة، وبما أني أنا الآخر الذي يفترض التخلص منه فإني أقوم بدوري بأقل ضجيج ممكن ولإختصار الشكليات. أبدو مغرماً وحزيناً، بائساً مستسلماً، فتحتفظ مني بصورة طيبة وبأثر لطيف ومحايد، وإذن سريع التبخر، فلا تنجح في ترسيم لحظتها الأبدية الأديبة الخالدة... والإحتمال الثاني هو أنها تحبني لكنها تحتاج لشعائر لحظة الوداع لكي تعطي أهمية أكبر لمشاعرها لتسترعي إنتباهي إليها. لتقول لي بأني لا أحبها كفاية.

fb/mashro3pdf

لتهددني بتركي. لتجعلني استطعم الحزن الذي سأكابده لامحالة إن هي تركتني. هذا الوداع الثاني يكون كذلك كاذباً إذن لأنه لاسترجاع لا لانفكاك، ولوصل لا لقطع. يكون للمزيد. للأقوى للأكثر.لأقول للآخر تمسك بي ولا تتركني. إعلم أن حضوري ليس بدهياً. تذكر أني لست أنت. أني شخص آخر وقد انفصل عنك، واتركك مقطوعاً. ناقصاً. هذا الوداع يقول احبني أكثر. امنعني من الذهاب. إلى هذه الإمكانية.

كل لحظات الوداع كاذبة، إذ هي تقع في واحد من الاحتمالين الاثنين. الذين يريدون الذهاب والقطع لا يلتقون ولا يتكلمون. لا يقدمون أعذاراً ولا يتركون فراغاً بين جملهم المتقنة. النسيان والفوات لا إلى الترميز والتخليد.

فيما انظر إليها تنظر إلى نفسها وإليّ وإلى اللحظة الخالدة، كنت أعرف أني لن أستردها. كنت أشك في الاحتمال الأول، في أن تكون غير مغرمة بي، وأن كل ما ترغب فيه هو التخلص مني. التخلص مني والإنصراف إلى سواي. رجحت الإحتمال الثاني. الوداع كدعوة لمزيد من الغرام وللتمسك بها. قلت في كلا الحالتين. أشعر بضجر منها. عميق وكبير. وبالطبع لن أستردها. سأختفي قليلاً كمن يختفي لينزوي بأحزانه ويُفرد لها، كمن يزهد بالعيش ويرتد عن الناس. بعد ذلك أظهر لها وأجعلها تراني دون أن أحاول استردادها أجعلها تراني حزيناً في غرامي، لكن مقتنعاً بقرارها تودعني

fb/mashro3pdf

وتتركني. وبأن الموضوع قد انتهى إلى الاحتفاظ بالذكريات العزيزة. ستري أني ابداً لن أحاول استرضاءها أو استنباط الطرق والحجج لإرجاع الزمن المفقود. هكذا سأكون حزيناً ولكن بارداً وبلا اللهفة التي اعتادتها مني. والتي لا بد تراهن عليها... وبعد فترة سأجعلها تراني مع أخريات. سأساعدها على الاعتقاد بأني مكفوف ومردود عن المرأة في جوهرها. عن المرأة، المرأة التي هي، ثم سأروح قليلاً جداً، ولكن استمتع. وأحاول أن أعطيها شيئاً فشيئاً، لكن نهائياً، المكان الذي اختارته. أحاول أن أضعها إلى غير رجعة في الإطار الجميل الذي رسمته بأناملها الفنانة. سأجعلها ترى أن محاولاتي قد نجحت وأني قد وضعتها في الفيلم الخالد.

كنت أفكر في كل هذا. وكنت أفكر في كيفية الإنصراف سريعاً دون أن أكسر الإيقاع، لذا لم أكن أسمع تماماً جملها المرصوفة. كنت أجد في عنايتها بجملها شيئاً كالوقاحة. كأن المنطق أقوى مني. كانت منطقية. أو تبدو جملها كذلك، وكأنني لست أمامها ولا أنظر في عينيها. كانت محصنة بذلك المنطق ضدي. قوية به كأن جسدي ليس موجوداً، بكامل عدته المثيرة، على طرف الطاولة.

لم أكن اسمع ما تقول. كنت فقط ارغب في الإنصراف لكني أبقيت على هدوئي. تفحصت هدوئي، وجدته مرضياً فقلت سأكون أكثر هدوءاً إذ ليس هناك ما يستدعي نفاد الصبر. وحين كنت أنتبه إلى أنها تنتظر مني إجابة أو تعليقاً، كنت ابتسم وأهز رأسي أسفاً،

fb/mashro3pdf

وأقول أي كلام يفيد بأن وضعي سيىء. بأن وضعي سيىء جداً... وفي وقت ما خطر لي أن أضحك وأن ألكز كتفها لتضحك معي مما نحن واضعين أنفسنا فيه بمتعة كبيرة أي في «بوزات» المواقف الجدية الخطيرة التي تبدو كأنها ضرورة مفروضة علينا.، خطر لي أن أقول لها هيا بنا يا بنت... إننا لا نلهو كفاية، ولا نفكر في الوقت الذي يضيع... إننا فعلاً ثقلاء وتافهون في إقناعنا أنفسنا بأننا عناصر جدية مكونة لتاريخ حقيقي وعظيم، بأننا لسنا أقل من روافد هادرة تصب كل لحظة في النهر الإنساني الأزلي الأبدي الهادر الذي يخترق الزمن . كل هذا كذب صغير، تفنيص... وأنا بالكاد مقتنع بأني موجود.

خطر لي أن أضحك لها من كل قبلي. أنا أقبلها على وجنتها وأشد على يدها مصافحاً صارخاً: سيري فعين الله ترعاك. ليس لأحد عند أحد شيء. بسيطة يا أختي، لا كدر الله لك وجهاً. لكنها كانت شديدة الاقتناع بما هي فيه. بما نحن فيه. ولأنها هي التي تودعني، ينبغي أن تكون هي من يختار اللحظة البليغة التي تنهي لقاء الوداع، وكذلك عملية إخراجها... هكذا لملمت حوائجها عن الطاولة، وقالت بصوت خفيض إنها لا تستطيع أن تتأخر أكثر. وقفتُ صامتاً، ثم عرضتُ عليها أن أوصلها إلى بيتها. وبالطبع رفضت شهامتي وقالت أن ليس هناك ما يستوجب تعبي لأن الأحوال رائقة والأجواء هادئة تماماً. والبيت بعيد. بالفعل، قلت في نفسي

fb/mashro3pdf

كم بيتها بعيد، وكم تكبدتُ عناء مرافقتها ليلاً إلى بيتها البعيد... ثم إلى الحافة المسموح لي بأن أصل إليها على طريق بيتها البعيد حين ازداد بعداً. ثم ازداد بعداً.

خرجت بخطى بطيئة حتى لا أحسب أنها تستعجل الخلاص مني... أو بغية أن أستوقفها. أن آخذ يدها، التي تركتها فارغة متبطلة، فأشدها منها، وأغمرها بقوة وأقول لها: هذا هراء، أراك غداً وأضحك، وتضحك وهي تبكي ووجهها قرب وجهي. أو لآخذها من يدها إلى سيارة التاكسي ثم إلى بيت سمعان وأنام معها وننسى قرارات الفراق... لكنني لم أفعل شيئاً من هذا لأنني لم أكن أرغب فيها. لم أكن أرغب سوى في التوقف عن رؤيتها أمامي وعن سماع صوتها في أذني.

لن أراك ثانية إذن. سألتها بما يتناسب والدرامية المطلوبة للظرف، فقالت بلى. بالطبع سنلتقي فنحن صديقان. نحن صديقان. كيف كان ممكناً أن ننصرف كل إلى حال سبيله دون أن تختم المشهد بألفاظ أكثر ملاءمة. أو أكثر دلالة على حدود ومقاسات الكائن الصغير المسطح في رأسها اللطيف، رأسها العالق بأشرطة الأفلام. يا لحظي!.

نحن صديقان، رحت أردد في نفسي بعد أن تركتها. ساخراً من نفسي أو بي ما يشبه الحنق عليها. نظرت في ساعتي وقلت سأذهب إلى لمياء ذات الثديين الكبيرين، فأنا ولمياء صديقان أيضاً. إننا

fb/mashro3pdf

صديقان حقاً. سأقول لها يالمياء نحن صديقان وأنا أضعت الكثير من وقتي حين ابتعدت عن ثدييك الكبيرين. ولو أني لم أهجرهما. ثم قلت ما لي والنساء. فلأذهب إلى بيتي وأنام. ولكني لم أكن نعسان، وخطر لي أن ارتب سهرة عارمة أرى فيها الشباب اصحابي ونضحك ونشرب. عرجت على بيت سمعان القريب، لكنه كان وحيداً والكهرباء مقطوعة، كذلك خط الهاتف، فلم نستطع الاتصال بأحد. لم أطل القعود عنده لثقل جوه الكئيب، الذي لم يكن يتلاءم أبداً ومزاجي الحار والمتطاير.

في الطريق إلى بيتي عاودني الإحساس بالحنق وأنا أتساءل كيف امضيت وقتاً، لم أكن أنتبه فيه إلى سخافة هذه المخلوقة وقصورها... تذكرت كذلك أنها هي التي اختارت أن نجلس في ذلك المقهى الذي تزين جدرانه رسوم لقلعة بعلبك ولأشجار الأرز الضخمة، مرصوفة بالأصداف الصغيرة البائرة، فتوجست من غروري وأحزانني أن أضطر للاعتراف بأنها لو كانت مغرمة بي حقاً لاختارت مكاناً أكثر أنساً ودفئاً، وأقل عمومية وتنفيراً من ذلك المكان البشع الذي يصعب جداً أن تختاره امرأة لتودع فيه حبيبها. فالنساء يهتممن كثيراً بالأجواء، وبإيحاءات الأمكنة. ثم قلت لنفسي على أي حال، خلصت منها.

بعد ذلك بأيام تذكرت العهد الذي قطعته على نفسي بأن أجعلها تراني من بعيد، تراني وترى أني لا أحاول أن أتشبث بها أو أن أعيد

fb/mashro3pdf

الأمور إلى الزمن المفقود... وحين ذهبت لتنفيذ خطتي وجدت أنها صارت في المرحلة الثانية من خطتي نفسها. رأيتها تتجه إلى سيارة فيها شاب أنيق ينتظرها. رأيتها هي التي تسعى إلى قشور الحياة محاولة أن تنساني. الفرق هي أنها لم تكن تعرف أني هناك. لم تكن تقصد أن تجعلني أراها. هذا هو الفرق.

لكني لم أشعر بالمهانة ولا بالغضب أو الخيبة. كدت أضحك. حاولت أن اتذكر الأسباب التي رصفتْها في جمل الوداع، فلم أتذكر شيئاً. لم اتذكر سوى امرأة متوسطة الجمال والذكاء وسوى نعمة كونها كذلك. إذ ماذا لو كانت جميلة أو ذكية أو شهية، تلك المرأة التي ودعتني في ذلك المقهى المزدانة جدرانه برسوم مرصوفة كالجمل، بالاصداف الصغيرة البائرة، في ذلك المساء الذي يخيم عليه سلام البلاد، منذ سنوات طويلة.

fb/mashro3pdf

(٢)

لكني بعد أيام وجدت نفسي أكثر من الذهاب والمجيء أمام دكان قريبي بائع الخضار. أكثر من التفكير فيها مدفوعاً بحشرية كبيرة لمعرفة ما حل بها...

ليس فقط ما حل بها، إذ لم يطل الأمر بي حتى انتبهت إلى أني لا أذكر الكثير عنها. فوجئت حين أدركت أني مثلاً لا أذكر تفاصيل بل صوراً بخطوط عريضة، اخلط فيها بينها وبين أخريات لم أعد أذكر تماماً، مثلاً إذا ما كنت أنام معها أم أن الأمور كانت تقتصر على القبل وبعض الملامسة. أرى أحياناً ثديين لها، ثم أتذكر أنهما لأخرى. ليست السنوات التي مرت كافية لأن أنسى لهذه الدرجة، خاصة وأنها هي التي قررت أن تتركني لتستقر بين أهلها وناسها.

fb/mashro3pdf

وربما لست أملك وقتاً كثيراً. فهي لابد تسكن في قرية قريبة كأثر الوافدين في انتظار توقف المعارك في العاصمة أكثر منه لقضاء الصيف. حشريتي كانت تزداد، وأنا استجمع في كل مرة اراها فيها من بعيد، ودون أن تراني، أستجمع أقساماً صغيرة منها. شعرها كان قصيراً وأكثر دكنة... أظافرها كانت قصيرة كذلك وغير مطلية. لكني لم استرجع شيئاً من جسد عار. لم أفهم كيف يحصل هذا لي. مستحيل أن أكون استخففت أمرها إلى هذه الدرجة. مستحيل. فأنا ما زلت اذكر بالتفصيل كيف ضاجعت الأرتيست الطليانية وأنا سكران مطفي... وأذكر تماماً عري تلك الأرتيست والشامة السوداء على كتفها الأيسر... ربما لأنها الطليانية الوحيدة... أو الأرتيست الوحيدة...

كانت تأتيني عنها صور صغيرة تافهة لا تفيد. تذكرت مثلاً حقيبة يدها التي كان قفلها معطلاً دائماً. تذكرت كذلك سناً أمامية مكسورة قليلاً في فم يضحك قريباً من فمي. كانت ترافقني إلى بيت سمعان القريب، وكنت أقبلها لكن ما الذي كان يحصل تماماً حينها، ظل السؤال يلح عليّ ويحيرني، ويحيرني إلحاحه على حتى قررت أن أكلمها. أن اقترب منها وأكلمها.

كأنها لم تفاجأ مطلقاً. سلمت على بحرارة كبيرة وهي تكرر اسمي. احمرت وجنتاها قليلاً، لكنها لم تكن مرتبكة. قالت إنها مع زوجها في قريته القريبة هرباً من القصف على الساحل. وتتبضع

fb/mashro3pdf

دائماً من سوق قريتنا لأنها أكبر، وأسعاره أرخص. انظر هذه الفواكه الجميلة قالت وأنا أساعدها في حمل الأكياس إلى صندوق سيارتها، ثم أقف قربها حائراً. صدفة جميلة جداً قالت وهي تمد كفها لتصافحني...

في المرة التالية كانت أقل فرحاً برؤيتي. كأن ذلك كان طبيعياً، أن نلتقي حيث التقينا سابقاً. ساعدتها في حمل الأكياس، ولما لم أجد ما أقول طلبت إليها أن نجلس قليلاً. في مكان ما ونتكلم. اعتذرت قبل أن أتم جملتي. لأنها متعجلة اليوم، ربما في المرة المقبلة، لم لا، قالت سنجلس في مكان ما، نشرب القهوة ونتكلم. ومدت يدها لتصافحني.

المرة المقبلة تلك، التي لم تعين لها يوماً محدداً، كانت في النهار نفسه من الأسبوع التالي. كان ذلك منطقياً. لكنني لم أقترب لملاقاتها. ظللت أرقبها من بعيد. ساعدها قريبي في رفع الأكياس إلى صندوق السيارة. دفعت ثم راحت تتلفت باحثة عني.

في الأسبوع الذي تلاه لم تأت لأن حوادث وقعت على الطريق بين القريتين فأقفلتها. وفي الأسبوع الذي تلا كانت هناك. لم أقترب. لم تلتفت باحثة عني بعد أن دفعت ورتبت الأكياس في صندوق السيارة، لكنها عادت تملأ ببطء أكياساً جديدة. كأنها نسيت أن تستكمل لائحة مشترياتها. عرفت أنها تطيل فترة مكوثها في الدكان علني أصل ولو متأخراً، فلم أقترب. وبعد أن ذهبت لم أفهم

fb/mashro3pdf

لماذا لم أقترب منها، لماذا فضلت أن أراها هكذا، من بعيد. خاصة بعد أن عرفت أو تهيأ لي، أنها تتلكأ علني أصل.

لكنني كنت أفكر فيها. لا أجد شيئاً محدداً أنصرف إلى التأمل فيه، لكنني أشعر بها قريبة مني. هكذا موجودة بجانبي وكفي. شيء لا يبعث على الحزن أو على الفرح لكن موجود. يروح، ثم يعود، ثم يستقر في مكانه. في الهواء. لم يعد يحيرني أني لا أسترجع كيف كانت علاقتي بها. لا أسترجع جسمها ولا استطيع الذهاب أبعد من يقيني بأن كنت أقبلها. ذلك اليقين الذي رسخ فيّ حين اقتربت من وجهها في السوق. لم يعد يحيرني هذا لأن شعوري بملازمتها الباردة تلك لي، وإحجامي عن الاقتراب منها، وتفضيلي رؤيتها عن بعد ومن دون أن تشعر، صار هو ما يحيرني.

ثم وجدت أني أحسنت فعلاً، لأني لا أريد الإقتراب منها مجدداً. أحسنت فعلاً.إذا ما الذي كنا سنتحدث فيه ونحن نشرب القهوة معاً. وأين كنت سأجد مكاناً أجلسها فيه وأجلس قربها...

وذات صباح وجدت نفسي جالساً في سريري عند الفجر، عيناي مبحلقتان ووجهها قبالة وجهي. وجهها قبالة وجهي. كنت مستيقظاً تماماً، كأن منذ ساعات. تحيرت كثيراً مما يحدث لي. غسلت وجهي وخرجت إلى المصطبة.

حاراً كان ذلك الصيف لكنني التففت بغطاء سريري القطني. فساعات الفجر في قرانا العالية باردة دائماً. كان غبش فجر الصيف

fb/mashro3pdf

في الجبال القريبة لا يحجب سطوح القرى. رحت أقلب نظري بين بيوت القرية الصغيرة. وأحاول أن أخمن في أي بيت تراها تكون، وكيف هي الآن نائمة، في سلام هذا الفجر وبرودته اللطيفة، إلى جانب زوجها.

fb/mashro3pdf

(٣)

الآن، وأنا مغمض العينين أتنفس ببطء رائحة رقبتها، أعرف أنه لم يكن من كل ما حصل بد. الآن بعد أن انقضي زمن على وجودها معي، وهدأت دهشتي الكبيرة. دهشتي من وجودها أمامي ودهشتي أيضاً من السرعة التي جرت فيها الأمور.

كان ذلك قبل ظهر يوم أحد. مر بي أحد الشبان من جيراننا وشرب القهوة معي. كان حائراً في أمره فهو مضطر للنزول إلى العاصمة وليس في سيارته ما يكفي من الوقود. كان البنزين مقطوعاً، لكنه سمع أن محطة في طرف مدخل قريتنا، قد يصلها صهريج قبيل

fb/mashro3pdf

الظهر، وطلب مني أن نذهب معاً في سيارته وننتظر أمام المحطة... بينما كنا ننتظر، رأيتها تمر بسيارتها بإتجاه قريتها. قلت لصديقي هيا بنا إلى القرية القريبة، فمن المؤكد أنّ في محطاتها بنزيناً، لكنه لم يجرؤ وقال: مستحيل، قد يخطفوننا، أو أننا سنتبهدل فى أحسن الحالات. فنحن لسنا نساء، وسيتعرفون علينا لا محالة. ثم سمعنا دويّ الإنفجارات. رأينا دخان القذائف المتساقطة قريباً منا فى الوادى. أدار صديقى محرّك سيارته لنهرب لكنه كان ينطفىء قبل أن تقلع . نزلنا من السيارة لنختبىء وراء جدران المحطة ونحن نعلم خطورة إنفجارها لدى أول شظيّة... ثم رأيتها تعود بسيارتها بإتجاه قريتنا. لحقتُ بها صارخاً، فتوقفتْ. صعدتُ الى جانبها. ثم صرنا نرى القذائف تنزل على الطريق، بعيداً أمامنا. نزلنا من السيارة، وأخذنا نتسلق الغاب على يمين الطريق لنحتمي بالصخور العالية. كنت أجرّها من يدها جراّ لأنها كانت خائفة جداً، ولا تعرف إلى أين أتجه بها. كانت تردّد: لكن، ما الذي جرى.

هبط الليل وكنا لا نزال نحتمي بصخرة عالية. كنا نرى القذائف الحمراء تشتبك في السماء قبل أن تنصبّ على القريتين وجوارهما. ثم وجدت أني احضنها تماماً، وأن رأسها في صدري وحَدَستُ أنه ليس الخوف وحده .

هدأ القصف تماماً عند طلوع الفجر. ظننت أنها نائمة فلم أبعدها عني للتحقق من ذلك. كنت اتحسس تنفسها المنتظم علي كامل

fb/mashro3pdf

جسمي ولا أعي ما أنا فيه.

حيق وقفتْ تنظر إلى السماء ثم إليّ، كنت أعتقد أنها ستتوجّه الى الطريق، الى حيث سيارتها لتعود الى بيتها. لكنها عادت وجلست بجانبي... فكرت أن أعود بها إلى بيتي لكنني لم أفعل. ثم سمعنا أصوات سيارات عسكرية وشاحنات، وزعيقاً ورصاصاً. عرفت أننا لن نستطيع اختراق الحواجز التي أقاموها على الطريق. لن يتركونا نعبر الآن فى هذا الوقت الهستيري. لن يدعونا نمر، لا فى هذا الاتجاه ولا في عكسه. نظرت إليها دائخاً خائفاً، زائغ الرؤية ولكن مغتبطاً غبطة غريبة وعميقة فيّ. وقلت لها: تعالي معي.

مشينا كثيراً قبل أن نصل إلى طريق ضيق ومقطوع. أصوات القصف العنيف أشكلت عليّ تحديد المكان الذي كنا فيه. سألتها إن كانت جائعة فلم تجب . لم تكن تتكلم لكنها كانت تنظر إلى باستمرار. تنظر إليّ باستمرار. رأيت أنها لم تكن خائفة، وإن كانت دائماً قريبة مني، تلامسني. وعندها ما عاد يساورني أدنيى شك في تصميمها على البقاء معي. حتى تلك اللحظة كنت لا أجرؤ على سؤالها، إن كانت تريد العودة. ولم أعد خائفاً منها.

قلت لها ستمر سيارة من هنا، لابد. تعالي ننتظر في فيء الأشجار. جلسنا في فيء الأشجار. هل بقي معك دخان، سألتها. مدت ساقيها ووضعت رأسها على بطني. كان صدري ينفلق وأنا أحاول ألا احرك ساكناً. ثم لم أستطع أن أحرك ساكناً. كنت أنظر

fb/mashro3pdf

إلى وجهها ولا أصدق ما أرى. كنت أرى روحي أمامي.... ثم فتحت عينيها تنظر إلى. فما عدت أرى سوى فمها.

حين قبلتها فقزت في الفراغ. اصطكت ركبتاي، وبعدت الأرض كثيراً تحتي. كان فمها ساخناً وطرياً. سائلاً. كنت أشدها إليّ حتى ينقطع نفسي ثم أعود إلى فمها وينقطع نفسي من جديد.

كانت رائحتها في أنفي وفي فمي كأنها ماء حار. زئبق حار ينفرط، ثم يتجمع ويترقرق لينفرط من جديد وأروح أجمعه من كل أمكنتها. كم كان ذلك سهلاً. أن تلتوي وتنفتح مع حركتي كأني لأول مرة أغادر وأن جسمي الكبير. كأني رجال كثر وظل لرجل واحد في الوقت نفسه. ثقيل وطائر فارغ وممتليء حار طيع وكان من دون عظام.

لأول مرة لا أرى جسم المرأة التي أضاجعها. لم أر جسمها. كأنه سائل للشرب. كأن حرارتها التي فيّ أقوى من أي شكل تستطيع عيناي التقاطه، كأني أعمى من أجل أن تأخذ حواسي الأخرى كل مداها وأقصى قوتها. لم أر شيئاً، لا جلدها ولا بطنها ولا فخذيها.

كذلك لم أر شهوتي. لم اعرف ما حل بي. كأن ذلك حصل في لحظة واحدة، في لحظة واحدة. شددتها، قبلتها، دخلتها وصرخت. وكأن ما فعلته بها، معها، لا علاقة له بالجنس أو بمضاجعة النساء.

الآن حين اتذكر أرى أشياء أخرى. أشياء أخرى ترجع إلى بعد أن تمددتُ بجانبها، أنظر إلى وجهها هلعاً. لأني بعد أن خرجت منها

fb/mashro3pdf

عرفت أني لن أخرج منها أبداً. كنت هلعاً. لأن أياماً كثيرة من الصراخ والبكاء والرقص لن تكفي فرحي وندمي، ويقيني من غلبتي وخسارتي نفسي. ندمي الذي لا قعر له، لأن لذة كهذه لن تجيء مرة أخرى، ولأني، لكي أحاول استعادتها عليّ أن أكون مع أحد آخر، غير نفسي. ولأني لن يمكنني احتمال تبعية لما هو من خارج نفسي . لن يمكنني احتمال خضوعي لجسم آخر يشيخ ويمرض ويموت ويغادر، ولا أحد غيري يمكنه ذلك. وقد اخترع الناس الحب الخالص لله، لأنهم يعرفون أنهم لن يرونه. لم يجعلوا له جسماً ولا موتاً. وهو لا يغادر لأنه في كل الأمكنة الفارغة منه.

كنت ممداً إلى جانبها، وقد انفصل جسمها عني وعاد إلى حركته التي سأبقى ممغنطاً إليها حتى أصدأ واتفكك في مكاني. كنت حزيناً. الآن أعرف أني كنت حزيناً، وأنا أنظر إلى الشامات السوداء الصغيرة المتناثرة على جلد وجهها ورقبتها. وأرى شعراً قصيراً نابتاً بين الحاجبين. وأرى نقاطاً سوداء صغيرة فوق الأنف وعلى حافة الشفة السفلى. وأرى زغباً أشقر ذهبياً فوق الشفة العليا. وأري سناً مكسورة كسراً صغيراً في طرفها.

الآن اعرف معنى دهشتي وفراغي وحدسي بغلبتي وخسارتي نفسي.

في الشاحنة التي رفعتنا عن الطريق الفرعي الضيق، كنت اتابع النظر إليها. إلى يديها. أرى خيط اللحم الصغير الملتصق بأظافرها.

fb/mashro3pdf

أظافـرها التي كـانت تلتـمع تحت طلاء وردي شـفـاف. أرى ظفـر سبابتها، ونحته بعض التراب الذي رحت أنظفه بأسناني.

كانت الشاحنة مليئة بالناس. بالهـاربين من القصف. وكانت فيها امرأة لا تتوقف عن الصراخ. وكان الآخرون بين البكاء شفقة عليها وبين التأفف من صراخ قد يرشد القذائف، يقولون لها: اشكري ربك فقد سلم الباقون.

لم أسمع شيـئاً. الآن أتذكر أن المـرأة كـانت تصـرخ لأن ابنهـا الرضيع سقط منها وهي تصعد في الشاحنة التي لم تنتظر. تركته هناك.

أنا، كانت أصابعها في فمي.

fb/mashro3pdf

(٤)

لم نبق وقتاً طويلاً في المدرسة حيث أنزلونا. قلت إنها إمرأتي، ولم يطلب أحد أوراقها. أعطونا فراشاً وبطانيتين وزاوية من غرفة كان فيها عائلة. الزوجان والجدة وأربعة أطفال. نصبنا شرشفاً أخضر حول فراشنا. لم تحبنا العائلة لأننا لم نكن نتكلم مع أحد. لم نرو حكايتنا، ولم نذهب معهم للمطالبة بالماء والإحتجاج على فساد المواد الغذائية التي كانت توزع علينا.... وكذلك لأننا تدبرنا ماء. واغتسلنا مرتين.

كنت أسدل الشرشف الأخضر. أحضنها. أضع رأسي في رقبتها وأتنفس...

وفي الليل كنا نصعد إلى سطح المدرسة حيث كان يسهر كثيرون في برودة الليل. ألفها بالبطانية، وأمسّد قدميها بكفيّ حتى تدفأ.

fb/mashro3pdf

كانت تبرد كثيراً، وقدماها كانتا دائماً باردتين. كسمكتين. كنت أقول لها أن السبب هو أكلها القليل. وأروح أتحير في ما عساني أحدثها به. لم تكن تأتيني الأفكار إلا بشق النفس. ثم أتصور الخريف وكيف ستمطر كثيراً. أحدثها عن رقة الهواء، وأشير إلى النجوم وأسمائها. ثم أنزل إلى الدكان الذي فتحوه في غرفة الإدارة. أشتري لها علبة بسكويت، أو لوحاً من الشوكولاته وأعود ألح عليها بالأكل. فتضحك وتأكل... ونبقى على سطح المدرسة حتى يخلو، أحياناً قبيل الفجر. لأقبلها كثيراً. لأنزع عنها ثيابها. أجلس أنظر إليها وهي تخاف. تتلفت، وتشد بأطراف البطانية. أجلس أنظر إليها. كإمرأة للمرة الأولى. شيئاً آخر وأشياء جديدة. مختلفة تماماً وشبيهة تماماً بنفسها بي بإلحاح البكاء على كالأحمق بماذا أقول لنفسي. ها هي أمامك. معك. وتنتظرك على أنك السيد، حينما ترغب وتريد. وهي تريد.

أحياناً كنت أعود فأغطيها. أرد عليها البطانية، إذ يستحيل عليّ عريُها. ضوء ثدييها وقمر حلمتها الأسود. أرد عليها البطانية، وأتمدد إلى جانبها أمسد شعرها. أجدله. أفكه وأقبله. وتلك الرغبة بالنشيج على مهل لإسترداد أنفاسي. وأنا أنظر إلى المساء. أقوي مني ومستحيل عليّ. أقوى من كل قدرتي ومن مساحة جلدي. ومشدود إليها ضائع ومن غير قدرة. هلكان قبل أن أضمها إليّ. محبط وتعب. وكفي تشرب من حرارة كتفها العارية وأتعبّأ نقطة

fb/mashro3pdf

نقطة، من أخمص قدمي، منذ ولدتني أمي، ولا أمتليء. لا أمتليء، ثم تفتح البطانية وتأخذني إليها.

كانت أحيانا تغفو. أرتاح بأنها ستنساني الآن وتتركني وحدي. اتنفس فوق فمها لآخذ الهواء الخارج منها، الذي اختلط بجسمها كله ونقى دمها. لوقت طويل أروح، مستنداً إلى ذراعي، أرقب عرق رقبتها ينبض. أحسد دمها الساري فيها لا أتحرك حتى تبقى نائمة بقربي. ساكنة وأنا لوحدي. أعد نبض العرق البادي وبتؤدة أضع يدي عليه أحاول النفاذ منه إلى السائل الحار الذي يدور فيها. تحت جلدها، وفي كل أعضائها.

يوماً ما ستذهب، أقول. لا أتخيل رجوعها إلى زوجها أو إلى أهلها. لا أتخيل ضجرها مني. فقط ذلك اليقين بذهابها لمجرد كونها منفصلة عني وفي جسد آخر تأمره بإرادتها. فقط هكذا تقوم وتمشي في إتجاه لا أعرفه ولا أتصوره. تأمر قدميها فتسيران مبتعدة عني إلى حيث لا أكون . ليس باتجاهي. صوب عدد لانهائي من الإتجاهات التي لا تكون صوبي. لا أكون في أحدها. هكذا تقف وتسير وأنا أبقى في النقطة التي أكون فيها. وهي كذلك قد تموت، ككل من يموتون بكثرة.

يا أمي، كان يعنّ أحيانا لي أن أصرخ وأنا أنظر إليها نائمة بقربي على سطح المدرسة.. وأن أوقظها وألبسها ثيابها، وأسألها إلى أين ستذهبين. في أي إتجاه ستخطين ولن تعودي.

fb/mashro3pdf

كنت أتذكر أنها إمرأة، وأعجب كثيراً. أعجب كيف أن لها جسداً هو ليس جسدي. لا يشبهه، ولا يتطابق مع تفاصيله... أتصبر بالوقت. أقول يكفي أن تبقى معي كثيراً لأستطيع إحتمالها. أن تبقي معي طويلاً حتى يفعل الوقت فعله.

يمر الوقت على أشياء العالم كسيف. يقطعها إلى نصفين ويخلصني. يعقم القسم الأول كتلك المطهرات القوية، السريعة التبخر. يفصلها عن أصلها الحيوي. تنشف وتخف. وتتعقم، لكنها ترسو وتبقى فيما القسم الثاني، فضلاتها، يتطاير مع أول الريح ويترسب ويتكدس في أماكن بعيدة نجهلها. نخلص منها. تلك التي تخف وتتعقم، وترسو، تبقى. تبقى في عقمها. تبقى أجسادنا في عقمها فيما أفكارنا وذاكرتنا تتطاير وتنعقد ثم تترسب بعيداً. أجسادنا التي يعقمها الوقت حين يمر عليها ويماثلها، تنشف من جنسها. هكذا تحايد الأشياء أصولها. المرأة والرجل يصيران شكلاً واحداً. جسداً واحداً. أعضاؤهما تستقر في جنس واحد. يطلع للمرأة شارب ولحية صغيران كمثل ما صار إليه شارب الرجل ولحيته. يتهدل ثديان صغيران للرجل فيصيران كمثل ما صار إليه ثديا المرأة الناشفان. حتى عضواهما يصيران كتوأمين، الهشاشة والحجم والهدل والخطوط النافرة الأولى.

هكذا تتطهر المومياءات بزمن طويل عليها. هكذا تحتفظ بضياع جنسها في التعقيم الكامل. بلا البويضات والهرمونات التي

fb/mashro3pdf

نسيتها منذ الزمن الطويل. هكذا لا تدخلها الطفيليات أبداً، لا تدخلها الطفيليات إذا استُخرجت من زمنها وأدخلوها زمناً دخيلاً عليها، هواء مختلفاً.

يمر علينا زمن أنا وإمراتي. ثم سنتشابه. سيصير لنا جسدٌ واحدٌ. جنسٌ لا اثنان. أستعيد جنسها وأحتمله وأتطابق معه وأخلُص.

لكن الزمن يمر علينا كإمرأة أيضاً. تعطلنا. تُوقفنا عندها. تُعقِّمنا قبل مرور الوقت الطويل. إمرأة تمنع عنا بركة الطفيليات ورحمتها.

fb/mashro3pdf

(٥)

تعاودني نسياناتي الكثيرة. تعاودني لأنها تشفق عليّ، لأني أحياناً أنظر إلى شجرة فأرى النسغ يطلع بطيئاً من الأرض الممتزجة بالرطوبة، يطلع في شعيرات الخشب إلى إنتفاضات الأخضر في الورقة. أنظر إلى بطن الأخت فانسان دو بول فأرى تلافيف عضوها وورقة رحمها الوردية، وأري بويضتها الصغيرة تنسلخ وتسقط كبندقة، تتدحرج في أنبوب رفيع، ثم تلتصق تحت نبتتين صغيرتين وارفتين، أنظر إلى جلدي، وأراه مغطي باليرقانات المجهرية التي تركتها عليه تلك المرأة بيوضاً تغتذي بتؤدة، وأرى عظامي الآتية بيضاء ملتمعة كعظام المتاحف. الكلسيوم والفوسفور.

نسياناتي الكثيرة تأخذني إلى غيري. أصير في الشاحنة التي تمر مسرعة بين الحرائق، وأروح أصرخ أن يردوا لي الصغير الذي

fb/mashro3pdf

سقط عند صعودي وبقي هناك. أصرخ أن يتوقفوا ويعودوا. أنبش شعري الطويل، وأقول أن لا علاقة لي بالوقت. ماذا يعني ألا نستطيع العودة إلى لحظة قبل أن يقع مني. ماذا يعني أن أكون بعد أن وقع بكثير. مادمت هناك. ما دام يقع مني وهو دوماً في طريقه إلى الأرض.

يقول لي جابر لا تدع أحوالك تسوء. أنت الآن بخير. نحن الآن بخير. ليس لك أولاد يقعون من الشاحنات. يعتقد جابر أن أحوالي تسوء حين أنسى ولا يعرف أنها فرصتي للراحة. لا يعرف أن جسمي يؤلمني حين يهدأ كثيراً. ذلك أن جابر ليس مثلي. حين يأتي إلى دير الصليب يكون ناسياً كل شيء. وحين يبدأ بالأكل والنوم وينتظم سير المهدئات في دمه يعود من نسيانه. وهو ليس مثلي لأنه حتى ناسياً يتذكر أشياء كثيرة. أحياناً يخبرني إياها وهو يضحك من نفسه. يخجل قليلاً مما يحمّل أهله.

أخبرني أنه بعد ذلك الحلم ـ وكان دائماً يرجئ روايته عليّ ـ صار لا يأكل ولا ينام. بقي أياماً لا يأكل ولا ينام، ولا يذهب إلى عمله. يبقى صامتاً ويكره الضجيج من حوله. لا يعرف في أي وقت من النهار أو الليل هو، ويرفض أن تكلمه امرأته أو أولاده.

بعد ذلك خرجتُ إلى البلكون، قال لي، وقفتُ على حافته، وأخذت أبحلق في الشقق القريبة مني وأسأل نفسي: كل هؤلاء البشر ماذا يفعلون؟ ويلح عليّ السؤال ماذا يفعلون؟ كلهم مثلي في شقق

fb/mashro3pdf

صغيرة ضيقة. تركوا بيوتهم. وسكنوا هذه الشقق التي كانت مفروشة لاستقبال السياح ورجال الأعمال والقوادين والمومسات، الوطنيات والأجنبيات. أنظروا الآن ما أقبحها. غسيل منشور وأولاد وروائح طبيخ وصراصير وجرذان. ويأكلون وينامون، ويتغوّطون.. ماذا يفعلون. ثم صرخت من حافة البلكون: ماذا تفعلون؟ أريد أن أعرف الآن. ماذا تفعلون والشرور تسير في الشوارع والأزقة كسيول البراكين . سوف تبُادون عن بكرة أبيكم... أنا المسيح المهدي لن أبُقي ولن أذر. طوفان من النار، والكبريت وأمحقكم. ورحت أصرخ الله أكبر... الله أكبر.. سأقيم العدل. الله أكبر.

إلتفت حول جذعي أيد كثيرة، وجذبوني إلى الداخل راحت إمرأتي تبكي وأنهال عليّ أبو عصام بالضرب حتى هدأت. قال لأولادي لا تخافوا إنها كريزة وتمر. وأعصابه تعبانة.

بعد أيام قال لهم الطبيب الأدوية لن تفيد. يجب أن تأخذوه إلى المنطقة الشرقية. إلى دير الصليب. هنا مستحيل. أطلب لكم سيارة إسعاف من الصليب الأحمر عندما تقررون.

حتى الآن يقشعر بدني حين أتذكر الحلم الذي لم أكن أقوي على روايته. أجهش بالبكاء كلما عاودني ومرت صورُه في رأسي.

وذات يوم روى لي جابر حلمه. قال: كنت أحصد القمح في خراج قريتي وفجأة سقط ليل كثيف. وجدت نفسي وحدي على تلة عالية. ثم انشقت السماء عن نور قوي، وشاهدتُ السيدة مريم تنزلق فيه

fb/mashro3pdf

إليّ. ركعت خاشعاً أطلب الغفران، لكنها نادتني بإسمي، ومدت لي يدها. مددت يدي وحين لمستْ أطراف أصابعي أطراف أصابعها، كانت القبة التي أركع عليها كل ما بقي من العالم. ولم يتبق تحتى سوى هوة هائلة من الفراغ. ومن ذلك الفراغ العظيم راحت تصعد موسيقى جميلة وقوية، تشتد وتتعاظم.

ثم استيقظت غارقاً في بولي، وفرائصي ترتعد من الهلع والفرح...

ثم نظر إلى جابر وقال كيف تفسر هذا الحلم.. لا قدرة لأحد أن ينزعه من رأسي، ولا أن ينزع من رأسي إيماني العميق بأني أستطيع أن أفعل شيئاً لأنهي الحرب. لا أقول أخلص العالم، ولكن أنهي الحرب فقط. لا أجرؤ على قول هذا إلا لك لأنك صديقي. قلت له: أيّ عذراء مريم يا جابر. أنا لي قصة معها سأرويها لك في ما بعد... لكنني اعتقد أنك حلمت حلمك بعد أن شتمت المسيح وأمه كثيراً ثم خفت. خفت ورأيت شروراً وشياطين تلعب في الشارع تحت بلكون بيتك. قال جابر لكني لم اشتم المسيح ـ إنه عيسى يا رجل فكيف يمكنني ذلك وستنا مريم أمه. مستحيل. قلت لا بأس يا جابر. يجب أن تأكل جيداً، وتنام جيداً، إذا كنت تريد العودة إلى أهلك.

بعد أن روى لي جابر حلمه، صار ينظر إليّ شذراً. ولا يأتي لملاقاتي في الحديقة إلا نادراً... لا يأتي إلا مع الممرضات، حين

fb/mashro3pdf

يطلبن منه القيام بعمل يرفضه يشكونه إليّ ثم يذهبن فيبقي قليلاً.

يهددني جابر بضعفه، بقلّة حيله وبشرود ذهنه وبإمتناعه أمامي عن الأكل في المطعم. حين يفعل ذلك أكرهه. أكرهه حين أعرف أنه يريدني أن أحبه، أن أصدقه وأكلمه، وأن يلتصق بي وأعرف آنذاك بأنه يكذب كثيراً. وبأن حلمه مختلق ومفبرك بكامله. يكذب حين يقول إني الوحيد فهذا حلم بوظيفة. وله معان كبيرة وواضحة. يرويه جابر على الجميع ليحمي نفسه. لأنه يعرف تماماً أنه في المنطقة الشرقية. وهو يعرف تماماً لماذا يسخرون منه في الحمام. يكذب جابر ويخترع ضعفاً يحمي به نفسه. ويذكرني بسمعان.

سمعان الذي ودعته على المطار باكياً حين قرر أن يسافر إلى ألمانيا حيث إبن خالته. قال ليك ليس بإستطاعتي أن أكون قاتلاً. جربت ولم أستطع. بلت في ثيابي. وكاد خرفي يقتلني. سأكمل دراستي في ألمانيا . لست محارباً. أكتب لي ولا تنسني. قال لي سمعان الذي كنت أنام عنده أكثر مما كنت أنام في بيتي.

سمعان، الذي استقبلته على المطار بعد سنتين باكياً أيضاً حين رأيت عينيه الزائغتين وشحوبه المرضي. بعد أيام من الصمت والأرق قال لي إن منظمة إجرام وتجسس عالمية تلاحقه. وبعد أيام أخرى قال إن السبب هو مسؤوليته الرفيعة في الدين الذي اعتنقه في ألمانيا. دين كوني، هو فيه بمرتبة «وزير». وبعد أيام قال إن المرأة الألمانية التي أحبها وتزوجها هي التي وشت به للمنظمة الخطيرة

fb/mashro3pdf

لأنه كان يلاحقها ليستردها. ثم قال لي إن المال الذي صرفه عليها هو الذي قضى على أمه ـ لا السرطان. لأنه تجاهل طلباتها بمال للمعالجة، وصرف ماله على المرأة الألمانية التي أحبها وتزوجها. وكان أبوها يملك معملاً كبيراً، وهي غنية ومدللة. ثم قال لي إنه كان قتلها لو لم تفتضح أمره للمنظمة. قلت لسمعان لا بأس. هنا سلاح كثير. ونعود إلى ألمانيا ونقتلها. ولن تعرف المنظمة بأمرنا لأننا سنتخفّي، وسننزور جوازات السفر، فهذا ممكن وسهل، ولا يكلف الكثير من المال.

بعد أن عاد سمعان يأكل وينام. وأخذته إلى قبر أمه. لم أكن أتركه لحظة. وحين تعرف إلى مُنى، وعاد يبتسم تأكد لي أن نظرته لم تعد زائغة وصرت أراه ينام كطفل فاطمأن بالي عليه.

لكن سمعان بقي يريدني. بقي يريدنا جميعاً. بقي ينزلق في إنهيارات عصبية صغيرة، ويأخذ الحبوب المهدئة. كنا دائماً نعتقد، ونخاف جداً، أنه سينتحر. وكان في هذا التهديد تهديد شخصي لكل منا. خصوصاً أنا. لم أكن أتصور حالي أنا نفسي إن إنتحر سمعان.

بقينا، بقيت أغفر له كل شيء، وأسمح له بكل شيء. ولدى المدلل كان سمعان. وشرطي الوحيد هو أن يستمر بالتنفس. بالنور.

حتى انتبهت ذات يوم بأن سمعان قد تزوج مُنى. وأن له إبنة. وله بيت ملكه. وأنه لم يتوقف يوماً عن العمل. وأن له علاقات طيبة جداً مع الجميع، والكل يحنو على سمعان. وسمعان يريد المزيد.

fb/mashro3pdf

ويبرطع كحيوان سعيد في حبنا ودرايتنا. وفي ذلك اليوم نفسه انتبهت إلى أني لم اتزوج. وأن ليس لي بيت حتى بالإيجار. وأن ليس لي عمل ثابت. وأن الجميع يعتبرونني مزعجاً، متخلفاً، وقحاً، عنيفاً، أخرق، لا موهبة لي. وأيضاً قوياً زيادة عن اللزوم وشديد البأس والبطش. كارهاً للجميع. زائداً عن اللزوم. انتبهت أني وحدي. وأن الصورة التي رسموها لي صحيحة وأني أكرههم جميعاً. وإنتبهت إلى أن ليس لي إمرأة ولا مكان. وأن قلبي معلق في علبة صدري الخاوية بخيط من القطن. لذا مكثت على ما قرروا. نكاية. كنت أقوي من الجميع. وأشدهم بطشاً، بلزوم ومن غير لزوم. ولم يكن أحد يرى أني واقف كالرمح المفتت. واقف كشوكة يابسة. وأني وحدي. مخالف وقح عنيد وكاره. لم يرني أحد. ظللت واقفا. صاروا يجتمعون بدوني. ويتفقون عليّ. يتفكهون بسيرتي. ويغفرون خيانات بعضهم بحنان وتفهم وأنا أحقد وأتذكر. ظللتُ واقفاً. صاروا يتعاونون، ويتبادلون كل أنواع الخدمات. يسهرون ويعملون مع بعض، خفية عني . ظللت واقفاً، حرناً كبغل في قفتي، وهم يسيرون بمواكبة شكواهم وتشكياتهم من الأزمنة الرديئة. وينظرون إلى ضعف بعضهم وإلى ضعف سمعان بحنو. كانوا يكذبون كثيراً. ظللت واقفاً، وكانوا معيار قوتي في وقفتي. استمرار. يكذبون كثيراً وأنا واقف كالرمح المفتت في الريح.

كرهني سمعان، وصار يتجنبني. وأنا في الليل أحاكيه: يا سمعان

fb/mashro3pdf

كيف تنساني أنا، لتندلق في كذبك الصغير عليهم. في كذبهم الصغير عليك. لم نكن هكذا قبل الحروب. يا سمعان.

إنتبه يا جابر. انتبهوا أن يحبني أحد. أن يلتصق بي أحد ويتنفس في هوائي. أعود بشعاً مؤذياً. لئيماً ومن غير شفقة. إنتبهوا أن يقترب مني أحد ويحبني. لأني أرى النسغ يطلع بطيئاً من التراب الممزوج بالرطوبة القائمة في شعيرات الخشب الطرية إلى انتفاضات الأخضر الواهي في الورقة. أحياناً.

fb/mashro3pdf

(٦)

كنت جُعَلَ الصحراء. شارب الضباب. لها.

مساحات لا تنتهي. أفق يلي الأفق، ويمتد فيه. أرض حمراء من نار، ومتحركة. شمس كبيرة وواطئة وهواء مشوي، مشفوط ومنفوخ في حركة واحدة. من أجل تلامس النار، إشتدادها واشتباكها. رمل يطق ويتفقع ويذري رملا.

يعرف جعل الصحراء أنها إرادة الرب فينتظر تواقيته. فقط قبيل الفجر يمر الغبش الرمادي، ويهبط الضباب. يتكثف وينزل حتى الرمل.

يمتد جعل الصحراء داخل جسمه. يكبر دون أن يفرد أعضاءه، ودون أن ينتفش بالرطوبة لأن عليه الإحتفاظ بحرارته الداخلية، ليكون في أقصى درجات التفاوت والتضاد. يكوّم بأرجله مرتفعاً في

fb/mashro3pdf

الرمل. يعادل في حجمه حجم جسمه الصغير، ثم يستند إليه. يستند إليه رأسه إلى تحت، حتى يكون عمودياً تماماً، في زاوية قائمة مع الأرض. يحكم إغلاق منافذ جسمه، وعلى مساحة جسم الجعل يمر الضباب ويترك نداه. يتكوم الندى رطوبة، ثم حبيبات صغيرة تتجمع نقاطاً، تروح تنزلق عن جلده وئيداً إلى تحت. إلى فمه، فيشرب.

لكني لم أفهم حكمة الرب. حكمته في منح الصحراء جعلها. لماذا - إذا كانت صحراء، مكاناً للقحط والصمت وعبرة لموات المخلوقات وسكونها، لماذا أرسل إليها جعله. لماذا أرسله إلى بشاعته وعذابه وشظف وقته. ليعطش كل ساعات يومه، ويختبئ من المكان الذي خلق له وفيه وهو ليس مكاناً للعيش. فجعل الصحراء لا يعرف من مكانه سوى هروبه منه، وسوى لحظات الضباب التي تمر سريعاً، عرضياً، فيشربها. يرى الصحراء في صورة واهمة وزائلة من حياتها الحقيقية. ليهربّها. يهرب إلى الليل حين تعود الصحراء صحراء، حين تكون في نهارها، فلا يعرف أين يعيش. لا يعرف إلا ما هو ممنوع عليه منها، بالفكرة البعيدة والتوجس والخوف. إلا ما هو بالحدس مميت له. ولولا خوفه وهروبه إلى ليله الإصطناعي الكاذب لاعتقد أن الصحراء هي ذلك النبع الكبير الذي ينزل من السماء، ويغلّف كيانه برداً وسلاماً.

لماذا لا يكون جعل الصحراء في الغاب، يرتع بين إخوانه جعلان الغاب، الذين يعرفون الغاب طيلة يومهم ويومه. ليلهم وليله.

fb/mashro3pdf

يشربون من النبع الجاري، ومن المطر النازل في مواسمه وفي غيرها، ومن ندى الأعشاب الطرية، حين يحلو المزاج. لماذا لا يكون بين هؤلاء الذين ـ بدل أن يغرسوا رؤوسهم في الأرض ليشربوا عرق أجسامهم وضباب السماء حين ترأف،وتضادّهم مع رأفتها، ثم يسرعون إلى التجاهل والنسيان وإلى الإختباء من أمهم الطبيعة ـ لماذا لا يكون من هؤلاء الذين يروحون في غناء وأزيز؟.

لكن حكمة الرب لا تحب جعل الصحراء. تحبه عبرة لمن اعتبر على مقدرتها العظيمة، وعلى إعجازها في التنويع والتوزيع، وفي استنباط الحياة من قلب الموت. كمثل حبها لهؤلاء الشعوب الذين تجعل من قدرتهم على البقاء علفاً لمخلية شعوب الغاب والخضرة، سماداً لغريزة البقاء المباركة، ودرساً لأذهانها الغليظة الكسلانة البطرانة. شوف جعل الصحراء. شوف شعوب الحروب الأهلية. شوف النبي أيوب كيف يعيد إلى جرحه الدودة التي، متخمة تقع عنه.

لكني لم أكن أقول لها شوفيني. كان هوائي مشوياً وأرضي محلوقة، ولا أملك شيئاً أو أحداً، إلا أني سراً، كنت، رأسي إلى تحت، فارداً مساحتي كلها، ذاكرتي القليلة وخيالي الفقير، ضابطاً فتحاتي على وحشتي واستوحاشي، لأتصيد لها الضباب، لأنصب له فخاخاً يعلق فيها عليّ، وينزلق عني لتشرب.

أجلس حزيناً متفكراً كيف أدبق بي هواء شرساً، محروقاً مسموماً، فارغاً كله وخداعاً، لأمتص منه رطوبة أخرجها لترى جلدي

fb/mashro3pdf

يلتمع بالطراوة، ليناً رخصاً طازجاً وتقبل عليه.

كيف أُسليّها، أنسيها، ليمر الوقت، لتبقى، فأنا أعرف أن لا أحد يحبني لوقت طويل. ما من أحد أحبني لوقت طويل. للوقت الذي يلزم لعلقة شبقي أن تشبع وتقع من نفسها. أنا والآخرون لا نخطئ بعضنا أبداً. نعرف بحدس الحيوانات المطاردة حفرة موتنا القادم. ما من أحد أحبني لوقت التفت فيه إليه من بعيد، ولا أتعرف إلى عاشقي الباقي على حافة الطريق، الباقي في جروحه المتقيحة. كالسومري. الباقي في حبي.

أعرف أنها تحبني. أعرف كيف تغمض عينيها حين أقترب منها وتروح تشمني. تتشممني وتشمشمني كجرو أعمى. كيف تفتح لي فمها، ساعديها وساقيها وتغيب لأحضر. كيف ترطبني بريقها، وتنفخ عليّ حتى أبترد في الحر. كيف تقبل يدي وتسند وجهها إلى كفي المفتوح، قبل أن تنام. ثم تنام.

أعرف أنها تحبني.

حين آكل تتوقف عن الأكل، وتروح تنظر إليّ. تبتسم وتنظر وكأنها تقود اللقمة من حلقي حتى تصير غذاء يدور في دمي وأعضائي، تتوقف عن الأكل وتنظر كأني أكبر أمامها، والآن أصير عافية الرجل الذي فيّ. وحين تجد أني أرتبك وأخجل تشيح عني. تأكل معي حتى أنتهي. تحمل الأكل بعيداً، وتعود إليّ تغسل أصابعي بريقها، وتفتح قميصي. تضع وجهها في صدري وتقول لي

fb/mashro3pdf

أن أتنفس ببطء وأن أحاول أن أغفو لأنها ستنظم إيقاع تنفسها على حركة صدري.

كانت تفتح ذراعي المطوي وتضع شفتيها في طية ذراعي حيث الجلد لين والعروق ظاهرة دافئة. تضغط على الساعد لتراها، ثم تعود بشفتيها إلى الطية وتبقى هناك. في الجلد الذي يشبهني طفلاً. ذلك ربما الذي لن يشيخ ويتهدل، ذلك ربما الذي سيبقى على حاله بعد أن تتركني بسنوات وأصير عجوزاً.

بعد أن عادت معي إلى قريتي وسكنتْ معنا، لم يكن يربكها، حين تكون المياه مقطوعة، أن تتقدم بتؤدة من الطشت الصغير وأمام أسماء تساعدني في غسل قدمي وهي تنظر في وجهي. ثم كانت ترفع يدي من الماء كأنها تتوسل. تخرج أسماء من الغرفة حيية. وهي، تصبّن يديها جيداً، وتروح تدلك قدميّ بالصابون. تقول: «لا تخجل هكذا، إني أحب قدميك كيديك وكقلبك. غداً إن أردت تغسل أنت قدمَي... أو تغسلني كلي». تسكب الماء النظيف، ثم ترفع قدمي إلى الفوطة في حرجها. تنشفهما على مهل. على مهل كأن بهما ألما تداريه. تبتسم من جديد وتقول: مدهما لا تخجل. أنت سيدي، وأنت أيضاً خادمي، تلميذي ورسولي. كما فعل عيسى. مدهما لا تخجل. فأنا أحب قدميك كقلبك. ثم تروح تدلك قدمي وتقول إن في راحة القدمين راحة الجسد كله، والنفس أيضاً، لأنهما نهايته وإنعقاد خيطه. تعيد الشعر منسدلاً في إتجاهه. تقبل قدمي

fb/mashro3pdf

في المساحة الملساء العارية فوق الأصابع ثم تتركني وترفع الطشت إلى البالوعة.

كانت أسماء تقول إنها صديقة لها تعرفها من زمان وهي في زيارة طويلة. علقت في منطقتنا ولن تلبث أن تعود. ثم راحت تقول إنها من منطقتنا، مسيحية مثلنا لكن أهلها توفوا، وهي ستقيم معنا، ثم راحت تقول إنها خطيبتي، وأن أهلها مغتربون، وأننا سنتزوج حالما يحضر أهلها من أستراليا لمباركة الزواج. لم تكن أسماء تعرف عنها شيئاً. ولم تكن تعرف على أي حال أن لها زوجاً. ثم انصرف الأهل والجيران إلى مشاغلهم وإلى تسليات أخرى.

قبلتْ أسماء ألا تكثر من الأسئلة، لأنها رأت أننا عاشقان، وأن هذه المرأة هي إمراتي، إمراتي زوجة أم لا بقيت تداري عني وعنها قلقاً عميقاً وخوفاً عليّ، لكنها أحبتها بعد فترة. ربما لحبها لي. ربما للحب الذي لم تحبه أختي العانس، وأصاخت لسماع أخباره وحكاياته طويلاً وكثيراً.

fb/mashro3pdf

(٧)

أعـرف أنهـا تحـبني لكن لاشيء يكفـيني. لا شيء يكفـيني. يعرّفني يقيناً.

كانت كلما أحبتني أكثر إتسعت عليّ. تتسع وتكبر حتى أصغر. أصغر وأتضاءل، ولا أعود قادراً على شيء. تلتبس عليّ أموري وأعيا أحياناً عن مضاجعتها. أقول كيف يمكن هذا. كيف يمكن أن تحبني في غير هذه اللحظة. كيف يمكن لي أن أتأكد من أن رغبتها ليست سوى ضجر، نزوة مزاج. لأنها من غير إمتحان. كلما رأيتها تحبني تضاءلتُ، وارتبكتُ، والتبستْ عليّ أموري، وتعاظمتْ فيّ رغبةُ أن أمتحنها...

أتركها وحيدة في البيت، وأخرج، أخرج ثم أعود خفية لأرى ما عساها تفعل في غيابي، وكيف تدبر ضجرها ووحشتها إليّ. ومن غير دراية منها أراها على المصطبة، بجانب أسماء تكتهل بسرعة

fb/mashro3pdf

مثلها، ومثل أسماء تبدو عانساً وقد سمكت عذريتها وقست. وهي تساعدها في فتح حبات المشمش الناضجة، ومدها على البسط الصغيرة والصواني التي ستأخذ مكانها على أقاصي المصطبة، في عين الشمس الآخذة بالابتراد والثقل في أيلول المتعثّر. تكونان بطيئتين في حركتهما، مبتسمتين وساهيتين. أجلس في الحاكورة، خلف أصص الأضاليا في العتمة أحدّق فيها تنظف أظافرها ـ التي عادت قصيرة كما من زمان ـ من دبق المشمش، وترفع عن جبينها الخصلات الخفيفة بساعدها. أرى مرة أخرى أنها ليست جميلة. أنها بعيدة ومن بلاد أخرى. مختلفة وليست قريبتي، وإني مضطر أحياناً لشرح بعض المفردات، التي تسمعها ولا تفهم ما تعني بلهجتنا.

لا تنظر إلى الساعة ولا تلتفت ناحية مدخل البيت، تشبك يديها وتروح تنظر تحت ضوء المصطبة الخافت إلى طيران الهوام وفراشات الليل الصغير. إلى حشرات المساء التي تحرك رذاذ الضوء، تبقى هناك وحيدة بعد أن تقوم أسماء إلى الداخل. وتبدأ رائحة العشاء بلا تسرب من النوافذ. أراها وحيدة وبعيدة، وأتساءل ماذا تريد هذه المرأة التي لا يبدو عليها أنها تنتظرني. بم تبدو مستمتعة، وبم تفكر. بمن. كيف تعرف ما يدور في رأس إمراة، رأس أقرب إلى حوصلة تتقلب فيها الأمزجة وصور الأشياء المهزوزة. كيف أعرف ما يدور في رأسها وحيدة، ومن أين يأتيني اليقين.

أمكث في مخبئي حتى أضجر وأتعب. أقرر أن أخرج طيلة الليل

fb/mashro3pdf

حتى أرى ما يكون من أمرها. أسير في الحرج القريب من البيت. أبحث عن رجل صديق أقضي معه الوقت. رجل يشد أزري دون أن يدري. يصطف إلى جانبي ضدها. يكلمني فأنسى، وأعرف أنها ليست سوى جزء، شيء من أشياء. إمراة، يحسدونني على إمتلاكي إياها. رجل يكلمني فيعيد رسم صورتها بين صور النساء الكثيرات التي تتناولها أحاديثنا الليلية حين نضجر من السياسة وأخبار الكهرباء المقطوعة. حين تعنّ لنا الفاكهة، ونحس بجفاف ريقنا. يساعدني دون أن يتكلم عنها. يساعدني بالكلام عن أخريات. فأجد فجأة أنهن جميعاً يتشابهن، أقول سأرجع إليها كما سيرجع هو إلى امرأته.

لا يكلمونني أبداً عنها لأني أقفل الأبواب سريعاً فيفهمون. لكن في آخر الليل، تأخذني عليها شفقة خفيفة. وفي طريقي أروح أتوعدها لو وجدتها نائمة لا تنتظر عودتي. أرى ضوء الشمعة ينسرب من تحت باب الغرفة. أدخل، فأراها جالسة في السرير تحدق فيّ عائداً.

أقف وأنظر إليها. كأنها تمحو حزناً خفيفاً حين تراني. أسألها لماذا لم تنم فلا تجيب. تجلس على حافة السرير القريبة مني. أبتعد إلى النافذة، أفك أزرار قميصي، وأنا أحّدق في أزرق الليل، وأقرر ألا أنام معها. لا الليلة ولا ليالي كثيرة قادمة. أفكر في فراش المصطبة الضيق. وأنا أشرق برائحة ظلها المرتجف على الحائط

fb/mashro3pdf

أمامي. لكني حين أسمع حفيف قدميها العاريتين على الأرض تقترب مني، تفرغ ركبتاي وألتوي. ترفع قميصي من الخلف، وتحيط جلدي العاري بذراعيها كحزام من الأسيد. تمر بفمها الحار من ظهري إلى رقبتي وتلتصق بي، فأراها. أرى لحمها مرتداً كأنها مستلقية، ثدييها بطنها منداحة، مجوفة قليلاً، وتلتي (مثنى تله) وركيها الصغيرتين مرتفعتين. أرى جسمها بنتوءاته تلك متداخلة فيّ. حارة.

آخذها واقفاً وأنا أشهق. ليست لوعة لا تهدأ. ليست شهوة أو غراماً، إني أعمى. لا أرى سوى أسود سميك وعميق. إنها تطلع من داخلي مثل روحي، وأضحك أحياناً كالممسوس إذا نظرت في المرآة ولم أرها.

أعرف هذا حين أنظر إلى وجهها بعد أن أضاجعها. ومغمضتان، عيناها تنظران إليّ، تمسكني إليها، لا تريدني أن أخرج منها. لكن أين هي؟

أين أضعها هذه المرأة التي لا تشبهني، وهي نفسي إلى هذه الدرجة. ولا أرى نساء في الأرض، المرأة التي تعجبني في الشارع تكون لا تشبهها أبداً. تكون تشبه الرجال. أنتبه، حين أفكر بالأمر، بأني لا أرى سوى النساء اللواتي لا يشبهنها، واللواتي يشبهن الرجال قليلاً. كأن جنسها شيء ضدي وأكرهه. أريده أن يقف عندها ويقتصر عليها. أو كأني يشقيني أن تختلف كثيراً عني. وأريدها أن

fb/mashro3pdf

تمشي صوبي لأستطيع إحتمالها، لتستطيع أن تفهم كيف أني حاد وسريع الإنكسار في جسمي الثقيل الذي يقودني حجمه وكبره وغلاظته.

صرت أحب كل ما يقع قريباً من ذكورتي السريعة النفور، ويخفف منها عني. أصغي بحسد إلى أخبار الحيوان والنبات الذي يتوالد من نفسه، وفيه عضوا التأنيث والتذكير. هذا جنس خلص من عذابه. حتى أني صرت أبحث، في كل ما أحبه ويعجبني، عن ميل عميق لتلك الحدود الصارمة إلى الإرتجاج والحيرة.

ربما لهذا كنت أحب أن أرى الزغب الذي يعلو شفتها العليا، وقد عاد أسود، وشعر حاجبيها الذي نبت وعاد يشتبك خفيفاً فوق أنفها لا تنتفه. وأظافرها المقصوصة حتى اللحم، بلا طلاء، وعروق يديها الزرقاء النافرة.

عرفت كذلك أني أصغي لأم كلثوم وهي تأخذني إليها، لأنها ليست مطربة أنثى. ليس تماماً. وجهها ليس جميلاً كوجوه النساء ولها رئتان هائلتان... ثدياها كبيران لكن رقبتها غليظة لتستطيع إحتواء حنجرتها، ولأن صوتها أكثر من جنس واحد فهو يطلع حتى قبة الرحم، ويهبط حتى بئر الخصيتين. الحامض والسكري. صوت بلا جنس والاثنان معاً. كلام أغانيها في مذكر يتضمن التأنيث، ولقبها الست. الست فقط كأنه توكيد لما ليس مؤكداً، ليس بدهياً. للقطع والهروب من الحيرة، وهي لا تستحي في المناجاة والغزل،

fb/mashro3pdf

تحكي عن ليالي العشق والوصل وعن دوران الكؤوس بالشراب وعن فم الحبيب، تسمعها النساء رجلاً، ويسمعها الرجال امرأة. وصوتها يغضب كأنثى، ويطيع كرجل حين الإثنان عاشقان.

زمن صوتها هو أيضاً ملتبس بين أنوثة الارستقراطية الذاهبة وذكورة بدايات التحرير، بين الكهولة والمراهقة. وبيولوجيا صوتها خلط وندف لانتظام الهورمونات وإنفصالها بين الشارع العام ومشربيات الحريم الظليلة بالياسمين، بين شمس المسالك المكتظة وإرتعاشات الأبخرة الطرية في الحمامات التركية. بين برادة المعادن المحترقة وشراراتها، وبرودة الحليب الذي يحمض وئيداً في الدفء. صوت إمرأة ورجل معاً. ألا يقولون إنها كانت سحاقيّة.

أعرف أن إمراتي تحبني لكن لا شيء يكفيني، يعرفني يقيناً. كيف تعرف ماذا يدور برأس إمرأة، حيث يتنطط العقل كالجندب؟

fb/mashro3pdf

(٨)

قل لي أيها الممرض، من أي مرض تشكو. ومم نحن نشكو مرضى؟

أخذ الممرض المرأة العرجاء من يدها. أجلسها على الكرسي بتؤدة، ورفع رباط رأسها الذي إنزلق على عينيها، ثم سوى الغطاء على ركبتيها، وجعل يديها فوقهما، فعندها زيارة.

إنهم يزورونها للمرة الأخيرة، فهذه المرأة اللطيفة تموت، قلت في نفسي. أعرفهم جيداً وبلمحة بصر، هؤلاء الذين سيموتون قريباً، دون دلائل أو إشارات واضحة. فقط يروح قلبي إليهم، وتتعلق بهم عيناي، وتلح عليّ رغبة الإقتراب منهم، والتحديق في ملامحهم. وكلمة وداعاً.

حملوا إليها موزاً. لأنه طري لزج، سهل التقشير، ولا يحتاج السكاكين الحادة. لأنهم لا يرون للمرضى في عقولهم شأناً مع

fb/mashro3pdf

الحياة، لأنهم يعتقدون أننا في ظلها، في وهمها، في طرفها اليابس البعيد، يتوقعون منا عدم الرغبة بها، الإستنكاف عنها والعزوف، والمحاولة الدائمة لتركها بإرادة منا، أو هكذا سهواً. يعتقدون أنها لا تعجبنا لأننا لابد نجهلها. لأن دفق الدم الباهت في عروقنا لا يكفي يعتقدون أن أجسادنا لا تكفي ـ حية ـ لتلحقنا بقافلة الحياة. يعتقدون أن الحياة هي في مكان آخر غير الجسد... وأننا في المنزلة الفاصلة الغامضة السريعة الزوال بين الحياة والموت.

كأن أجسادنا ما زالت معلقة بالحياة بخيط رفيع، لا بد سينقطع ولو دون سبب. أو كأن رغبتنا بالموت أكيدة نافلة، وسننزلق إليها طبيعياً أو عن غير قصد، إنها رغبتهم هم لأنهم يرون أننا غير جديرين بالعيش، لا بأفراحه ولا حتى بأتراحه. ولأن حياتنا النباتية ليست كمثل حياة الحيوان أو النبات. المحسوبي ردات الفعل والسيرة. لا يقفز الحيوان أو النبات، عن المتوقع منه. وهو كذلك لا يشبه مطلقاً شكل الناس. نحن نذكرهم كثيراً بأنفسهم، أجسادنا كأجسادهم ومثلهم نتكلم ونسير، ومثلهم في ما مضى كنا، قبل أن نصير إلى ما صرنا إليه من التهافت والمرض والإبتعاد عن الحياة وجوهرها المضيء. وربما من هذا التماثل ننفد، وندب الرعب في قيعانهم الدفينة، نرش الماء على بذور رغبتهم بالانفلات والتسيب والغفلة والنوم عن الأيام.

يقررون وضعنا على مسافة بعيدة منهم. ويعزلوننا. ثم يعزلوننا

fb/mashro3pdf

في أمكنة محاطة بالأسوار وبالغابات والأشجار. لهذا ربما حين يكلموننا، يرفعون أصواتهم عالياً، لكي تصلنا لإبتعادنا القصي. ويتكلمون أمامنا عنا، ولو كنا نعي. يفترضون فينا غصباً عنا الصمم، وعدم الوعي، ويكررون كثيراً كلامهم، ودائماً يتساءلون إن كنا نتعرف عليهم لأنهم يفضلون - حين يعودون إلى بيوتهم - ألا نتذكرهم لكي لا يتذكرونا... وسنساعدهم في ذلك. نساعدهم في ذلك.

يطعمونها الموز بحنان ويتكلمون أمامها عنها، ثم يرفعون أصواتهم بالأسئلة السهلة حين يتوجهون إليها، يكررون الأسئلة دون أن ينتظروا منها جواباً... وهي غدت لا تجيب، مستغرقة في المضغ والإبتلاع، مشيحة عنهم، مشيحة عنهم.

ويرون المرأة المريضة في عقلها أشد مرضاً من الرجل المريض في عقله. أشد استغراقاً وابتعاداً لا أشد ضعفاً، إنها أكثر تعرضاً للعيب في إدارتها لجسمها، إذ هي لا تدرك الحشمة، وتتساوى عندها أعضاؤها كلها، فلا تتحكم في أي منها كما ينبغي. كأن المرأة المريضة في عقلها تفقد الضابط مرتين. مرة لغريزتها، ومرة لفقدانها ما تعلمت ضبطه بالسلوك.

يطعمونها الموز بحنان، ينظفون حتى ما لم توسخه. يتوجسون منها ومن كل شيء. لا يطيلون المكوث لأنهم يفترضون أنها لا تعرف شيئاً عن الوقت. يباعدون ما بين زياراتهم. وحين ستموت لن

fb/mashro3pdf

يكونوا هناك. سيطلبون من إدارة المستشفى نقلها بسيارات الصليب الأحمر، وسيلاقونها عند مفترق طريق ما، غير بعيد عن المكان الذي سيدفنونها فيه... لن يحزنوا كثيراً لأنه موتها الثاني. وسيقول لهم المعزون إنها إستراحت. ماتت ميتة ربها ولم تطلها الحروب.

أرى كل هذا. لا أعرف إن كنت أقل مرضاً. ولا أعرف إن كان هؤلاء الذين يتحركون حولي يرون هم أيضاً ما أرى، إن كانوا أقل أو أكثر مرضاً مني. لا أعرف التصنيف ولا المنازل، لكني أرى المسافة بيني بين من يأتون لزيارتنا والممرضين والأطباء. بيني وبين من هم خارج الأسوار ما وراء غابة دير الصليب، لا أراها تلك المسافة.

نسيت كم من الوقت مضى لم أر فيه جابر حين التقيته في جلسات الطبيب الجديد.

قلت في نفسي: هذا الطبيب الجديد كان لابد في الخارج، في أميركا أو في أوروبا. وفي يوم من الأيام واتته الحمية. ضرب فيه صوت الضمير الوطني، أو الإنساني الشمولي كما يضرب توازن السيارة المسرعة ثقب مفاجئ في أحد دواليبها. فكر في رأسه: لا أريد مالاً ولا جاهاً. بلدي بحاجة إليّ فهناك الشقاء والجنون الفعليان. خيّر زوجته الأجنبية بسرعة: تبقين هنا أو تعودين معي. وضّب حقائبه في ليلة ليلاء، وأتانا إلى دير الصليب. عين يطفئها إنكسار الشفقة وعين يشعلها حماس العمل الدؤوب على مداواتنا

fb/mashro3pdf

من أمراض النفس والمجتمع.

المجتمع... المجتمع.... كنا أنا وجابر ننفجر بالضحك في جلسات الطبيب الجديد كلما سمعنا لفظة مجتمع.. وكان كلما ضحكنا، إنتظرنا لنخرج من نوبة الضحك، وراح يسألنا عما يثير فينا هذه الكمية من الضحك عندما نسمع كلمة مجتمع، فنعود أنا وجابر إلى نوبة الضحك من جديد... نوبة أطول وأعمق وأدسم وألذ... حتى نهلك من التعب... وحتى ييأس الطبيب، وحتى يأخذ الآخرون بالضحك مثلنا... أو يضجرون فيقوم كل إلى حاله ويصعب بالتالي لم الشتات.

ثم قرر الطبيب الجديد أن يستغني عن المجتمع، وصار يستبدلها بالأهل والناس والخارج. لكن أعضاء الجلسة كما رحنا نسميهم أنا وجابر، كانوا أحياناً يستحسنون إستعمال اللفظ لإعطاء فكرة جيدة عن أنفسهم للطبيب، فيفلت من جديد أمام الأمور. ومرة سألنا الطبيب بم نحب أن نستبدل كلمة مجتمع فقال له جابر لماذا نستبدلها إننا نحبها كثيراً، وهي تسعدنا. وعندما ألح قلنا له إذا أردت نقول الأمة. أو القوم أو الشعب ثم اتفقنا على لفظ محايد كألفاظ الطبيب، وصرنا نقول: الناس في الخارج.

والحقيقة أننا ما عدنا نقول شيئاً، لأننا أنا وجابر لم نكن نشارك فعلاً في الجلسات. جابر بلي، من وقت لآخر لكن أنا ضجرت بعد حين من سماع كلام الآخرين. من الأسئلة والأجوبة. ومن الدرامات

fb/mashro3pdf

الصغيرة الكئيبة. صرت أتساءل، هل يتسلى هذا الرجل بهم، ولماذا لا يتركهم لحالهم، وما الذي يريد إفهامهم إياه؟ كان يبدو لي سادياً دون مبرر. آتياً من عالم مغاير ومختلف وغير حقيقي. غير مجد. لا يعرف عنا شيئاً. عنيداً قاسياً ومنحرفاً. فيه فساد صغير كامن. حشرياً وبصاصاً متلصصاً يحتقرنا عميقاً وليس فيه حتى رحمة الممرضين الموسمية. وأحياناً أشد تعنتاً وأذية من المحاربين خارج أسوار الحديقة. وأعرف أني أبالغ.

يفتح دفتره، يحمل غليونه المطفأ بأصابع بيضاء رفيعة. يبتسم بنبل داخلي رصين، وعينين نافذتين، ويتكلم بتؤدة، بصوت خفيض متفهم وصبور. ويروح يكتب ملاحظاته بالأجنبية.

سألني مرة لماذا لا أتكلم فلم أجب. ثم قال لي ما رأيك بما يقول صديقك؟ قلت ليس صديقي، وليس لي رأي . قال لي بم تريد أن نتحدث فسكتُ. كرر سؤاله فشتمته. قلت له أو تتركني في حالي أو تروح تن... وحين حدق إليّ مبتسماً، قلت له أنا لا أريد حضور جلساتك. قال بلى ستحضر جلساتي. قمت عن كرسي حملته، وهجمت عليه، رد الضربة بمهارة وخفة، ولوى ساعدي. عرفت إذ ذاك أني أكرهه عميقاً، وأني أقتله لو استطعت، وصرت أحلم له برصاصة طائشة، أو أنساه تماماً.

ربما بعد ذلك لم أعد أرى جابر كثيراً. ربما بسبب كرهي العلني للطبيب الجديد، صار جابر يتجنبني. نسيت. لعله كان عند أهله

fb/mashro3pdf

لفترة طويلة. لم أعد أذكر . لكني كنت في غرفتي أتذكر بين حين وآخر بأني لا أرى جابر. بأني لم أره منذ فترة طويلة.

وبعد فترة، وجدت نفسي في الجلسات من جديد. لكني كنت أشد تعباً، وأقل قدرة على تذكر كراهيتي للطبيب الجديد. صار يقبل أن أبقى صامتاً، وألا أرد عليه. ومرة قال لي كن عدائياً حين ترغب لا بأس، لا تخف لن أزعل منك. قلت له لا تكلمني هكذا، أنا لست طفلاً، وصار يجدر بك أن تفهم بأني لا أحب الكلام، ولا الجلوس مع الآخرين. مع المجتمع. فلم يرد عليّ وظل يحضرني إلى الجلسات وينساني، فأنساه.

ومرة أجلسني إلى طاولة، على حدة، أعطاني أوراقاً وأقلاماً وقال لي أكتب أو أرسم... خربش ما تريد.. سأتركك لوحدك.

كان ينقصني هذا يا الله.

كان ينقص قطيع الرب، الذي يحقره الرب أن يكتب وأن يرسم. كانت تنقصنا البيوت القرميدية والأشجار المدورة الخضراء، والحمامة البيضاء، حاملة غصن الزيتون، التي ترفرف تحت برتقالة الشمس ذات الشعيرات الواقفة. معارض لرسوماتنا، نحن الهبل والمعاقون والأطفال.

ينتج لنا، هؤلاء المباركون، ينتجون لنا في حربهم، السلام الذي يلائمنا، ينتجون بنتاً صغيرة إسمها ريمي... كإسم الولد اليتيم المعذب في الحكاية العالمية الشهيرة بعنوان «بلا عائلة». ريمي بلا عائلة بلا وطن، وبلا سلام. تلبس ريمي فستاناً شفافاً رقراقاً بريئاً،

fb/mashro3pdf

أبيض، ويتجمع حولها الأولاد، تدور بينهم مرفرفة بلا جناحين. ملاكاً يتيماً حزيناً، يديره مخرج ذكي ابن شعب يتميز بحدة الذكاء، بالذكاء الخارق الذي قلما منّ الله بمثله على خلائق المنطقة... وغيرها من المناطق. حولها الأطفال، الأبرياء، ضحايا الحرب والتقاتل، متحلقون وهي تدور بينهم تلاطفهم كأرتيست في الخمسين من عمرها. شعب فذ وأطفاله ضحايا. إنهم يفسدون البذرة في الأرض. نحن نفسد البذرة في فكرة الثمرة قبل أن تينع، في نيتها في اليناع. السباقون دوماً. نهضة جديدة على مستوى نختتم بها القرن، ووراءنا ستجيء بلدان، وأقاليم ومدن،. هنا وهناك وهنالك.. ما نصنعه اليوم، سيتكرر بشكل مدهش على شاشات وفي كتب، وخرائط، وكاسيتات. انتظروا قليلاً، وسترون كيف ستفرقع الأقوام والحدود الآمنة المستتبة في غطرستها، كيف سنُدخل الأبجدية الجديدة عصراً جديداً. مختلفاً وجميلا. ستأتي أقوام وبلدان ومدن لم تسمعوا بعد بأسمائها. سترون.

«أقعد لوحدك أنت المعذب المخطوف. خذ وقتك. كن شاهداً على العنف» يقول لي الطبيب، أنت الذي يتفجر جسمك عنفاً، ويشتعل رأسك بذكرى القتل، ورغبة تكراره بلاحدود أو نهاية، ارسم ولوّن.

أرسم حمامة بيضاء تتدلى من جناحها نقاط حمر. وغصن أخضر. سنحممك ونمشّط شعرك، وسنعمل لك معرضاً كبيراً بضجيج. في دير الصليب.

fb/mashro3pdf

(٩)

تلك هي الخطيئة المميتة.

أن تصارع الوقت، أن تصارع الوقت. أن تنسى وتستسلم لطبعك. أن تنسى في أية لحظة كانت بأن نجمة الصبح، هذه التي نظرتْ إليها كثيراً عيونٌ باكية أو مطفأة بعد نزع أخير طويل، عند تشقق طين الليل في أرق أو وجع أو خوف، عيون فارغة بيضاء غادرها الولف وغادرها ظله، أن تنسى أن هذه النجمة، التي قالوا لها كثيراً وتقول أنت: أيتها النجمة البعيدة الجميلة أضيئي في قلبي، أضيئي في قلبي قليلاً، الآن ثم إنسيني، إن هذه النجمة قد إنطفأت، وماتت قبل ميلاد المسيح ببضعة آلاف من السنين... وأن ما تنظر إليه الآن هو الوقت الضائع بعد الفوات، هو النور الآتي قاطعاً، مازالت

fb/mashro3pdf

المسافة إلى عينيك. مسافة طرفها الآخر في العتمة والعدم. أنظر إلى نفسك ناظراً النجمة التي ما عادت. ثم إذهب وانس.

أنظر إليها، واعرف أنه جريان الوقت. إعرف أني، وأنا ألهث ستبدأ ـ في الطرف الآخر من خيط المسافة ـ تضجر مني... كيف إذن أصوغ جملتي لأجيبها حين تقول لي أنها راغبة أن تجد عملاً...

هل بدأت تضجرين؟ لا، ستجيبني. لا، أجابتني مبتسمة. لن أسألها ألأني كريه؟ هل ينقصك مال، سألتها. سكتت. لا تريدني أن أعطيها مالاً... بداية تفتح بذرة السلطة، الإمتلاك، الإدارة. النساء يفكرن الآن، ويرغبن بقطعة لهن. قطعة من العالم الجميل لنديره وندبره مثلكم. كن يحفظننا من الجنون والإنحراف. الآن سيفعلن مثلنا، وإلى الجحيم القلة الباقية من توازن الأرض. النساء سيكون القصاص الحقيقي. من له يعطي ويزاد. سوف يشبهننا الآن لنرى أنفسنا. كما حين يكبر الولد ويُري أباه ميراثه من الجينات. أنظر إليّ في عقوقي. فأنا أشبهك إلى حد أني ابنك. وتعال نحصد سوية.

حسناً. ولكن ماذا ستعملين وأنت بلا أوراق؟ ولماذا يعطونك عملاً، ولا أحد يعرف بك؟ وأنت لا تريدين حتى أن يعرفك أحد. ستنزلين كل يوم إلى العاصمة وتعودين؟ ماذا تريدين؟ أنت حرة.

لم أنتظر أجوبة مفصلة وخرجت.

أنت حرة. أنت حرة. ماذا تريد هذه المرأة. قل لأي امرأة أنت حرة وسترى ما لا تعرفه هي إلا بالفطرة أو الغريزة. سترى أن الأمر كله لا

fb/mashro3pdf

يتعدى كونه لعبة الخروج بجسدها إلى العلن. إلى الواجهة والإحتمال.. ذكر واحد لا يكفي مهما كانت عاشقة. ليس لفعل الجنس إنما إلى نزق اللعب والرعونة الخفة والمزاج. ولو كانت تقرف أجسادهم، أو تنهيها أخلاقها، أو ذاكرتها المحكمة، تبقي العيون. تلك هي الحرية التي ستطيح بنا حين سنخرج جميعاً إلى العلن، إلى الشوارع العريضة الجميلة المضاءة بقوة. نحن وهن والكارثة المحققة في أن يشبهننا العيد.

في الساحة وقفتُ تحت شرفة أتقي المطر. أنظر إلى حباله في ضوء مصباح البلدية. هذه الليلة عندنا كهرباء، لكن نوافذ كثيرة بقيت مطفأة. كثيرون عادوا إلى العاصمة، وأدخلوا أولادهم إلى مدارسها لكن بيوتهم هنا جاهزة مجهزة مرممة ليعودوا عند أول إشارة، ولو أنهم يعرفون أن القرية غير آمنة، وقد قامت بواجبها، ونالت حصتها من المعارك الضاربة التي لا شيء يؤكد أنها لن تعود. إلا أنهم لاشك يعلمون أن المناطق تتناقل الحروب مداورة. أم تراهم خفية يرغبون لقراهم بأمان واهم، ولا خيار لهم في رغبتهم تلك.

ساحة القرية، ليلاً، في الشتاء. لا أحد ولا حركة. لكن الروائح والأصوات تختلف الآن. حتى الروائح والأصوات. المداخن لم تعد ترسل الأبخرة نفسها في الهواء العمومي المثقل بالرطوبة. لأنهم الآن، ومع إرتفاع أثمان الوقود، كل الوقود، يحرقون أي شيء في

fb/mashro3pdf

نوافذهم، ويحرقون ما هو قابل للإحتراق مما تشلع وتهدم في المعارك الأخيرة. درف شبابيك، وأبواب وكراسي، ورفوف، وربما بعض الخشب الذي صاروا يحطبونه بأنفسهم من غابات قريبة آخذة بالإنحسار.. أيضاً لم أعد أسمع صوت المطر نفسه، بعد أن ضاقت الطريق، والساحة خاصة بعمار سريع عشوائي لسكان المدن البعيدة الذين داهمهم الحنين على حين غرة، فراكموا له باطوناً طازجاً صلباً لا يهتز أو يتناثر كالقرميد الهش شبه المفقود والفاحش الأثمان. كان هؤلاء الذين داهمهم الحنين على حين غرة، قد غُدروا قليلاً في مشاعرهم ومدخراتهم، كمن تعود إليه عشيقة قديمة نسي وجهها، لتحاسبه الآن وتتطلّب.

ما الذي يغري الكلاب بالخروج في الليل الماطر. ربما الأرق فالكلاب لا تنام. فقط تكبو، وتستفيق راكضة لتحرس أي شيء. ليست لها أخلاق الحارس، إنها تحرس لأنها لا تنام. تحرس سهواً، من طبيعتها ، ضجراً.

وتخرج الكلاب في الليل بحثاً عن الإناث، الإناث بحثاً عن الذكور، لذا لا تنتبه حتى أن مطراً غزيراً يهطل الآن على فرائها الحارة التي ترد الماء بخاراً. تصفن قليلاً. تفتح أشداقها، تركض في العتمة. لاتنتبه للعتمة، لأنها ترى ما تريده. ولأنها ترى ما تريده وتلحق به ، فالكلاب لا تخاف.

طفلاً. كنت أخاف من الساحة الواسعة الغارقة في العتمة. أتعلق

fb/mashro3pdf

بيد أبي، ونحن نعبر أمام الكنيسة، وأسأله عن أي شيء لأسمع صوته. تكلم يا أبي ليشبه هذا الفضاء ذاته التي نعرفها له في النهار،. تكلم يا أبي لتميع وتنقشع لزوجة الليل أو غني موالك عالياً في أول النزلة لنفك أقفال العتمة، ونتعرف إلى الجدران الموصلة إلى البيت. علٍّ علٍّ ليعرفك فراغ قفا الكنيسة وصور قديسيها الأشداء السيقان، ليبقى في صورته مار الياس الحي ، الذي يدرس الشيطان مفنجراً عينيه بي، وهو سيهوي بسيفه الكبير على عنق زعيم الكفار، ممسكاً بشعر رأسه. لكي لا يعود الآن مار الياس الحي الذي سيعود.

ينطفئ ضوء المصباح. أعرف أني أطلت المكوث في هذا المكان وأرتجف من البرد.

عدت إلى البيت سكران ومبتلاً. لم تكن نائمة، حملت منشفة واقتربت مني وهي تسألني أين كنت حتى الآن. دفعتها بيدي دفعة قوية. تعثرت ولم تقع. التقطت شيئاً عن الأرض، شبكت به شعرها وقالت ليك أياك أن تفعل بي هذا ثانية.

وأنا أتقيأ فوق المرحاض، كنت أتساءل ما الذي تقصده بألا أفعل «هذا» ثانية: ألا أسهر للصبح وأعود سكران مبتلاً لا تعرف من أين، فأهدر صحتي، وتقلق عليّ سهرانة طيلة الليل، أم ألا أدفعها بيدي.

حين عدت إلى قربها كان الفراش دافئاً. قلت لها لن أعود إلى

fb/mashro3pdf

هذا ثانية. لم تحمل المنشفة لتجفف بها شعري، ولم تستدر ناحيتي. وقبل أن بأخذني نوم الإنهاك، فكرت أن لهذه المرأة أيضاً ساحة معتمة تمطر الليلة فوق مصباحها، وأن لها صوت أب يرتفع كان ليسير بها في الليل. وأن لها ذكريات كثيرة، لا أعرفها ولا حول لي ولا قوة حيالها. وأني في السنوات التي مضت لم أكن موجوداً. وأني في السنوات التي تلت لم أكن موجوداً كذلك. ،أني كالقاعد في خرم الإبرة. بين الإشفاق عليها والحنق العارم، إذ تذكرت أيضاً أنه في هذه السنوات، وفي السنوات الأخرى عرفت هذه المرأة رجلاً غيري.

قبل أن يأخذني نوم الإنهاك والغضب، مددت يدي إلى زندها فنفضته وردت يدي. كانت تلك المرة الأولى. رفضتني.

قبل أن أنزلق في النوم غصباً عني، رحت أركض في الساحة محدثاً جلبة كبيرة... كنت أدق أظلافي في الأرض، فأحفرها، وأنفخ ناراً من منخري فأثير الغبار والتراب. كنت ثوراً كبيراً هائل القوة راكضاً خائراً مالئاً الساحة الفارغة، كاشطاً ليلها بقرني العظيمين. وكنت غير منتبه إن كانت تمطر أم لا.

fb/mashro3pdf

(١٠)

ثم صارت البذرة تينع، وامرأتي تسترسل في البعاد.

صارت، حين أتكلم إليها تسمعني كالآخرين.

تقف كالحارس الأمين لتلتقط الإشارات التي تنتظم كلماتي في جمل ذات دلالة ، وفي أفكار مفيدة ـ أو ضارة ـ لها منطق مسبوك، حتى ترد عليها. تنتظر مني، كالآخرين، دلالة لا معنى. الدلالة التي للكلام، المعنى الذي لي.

حتى تتكلم، عليك أن تنسى كيف يسمعك الآخرون. لأن للآخرين أوعيتهم التي فيها تتمغنط برادة الكلمات المفروطة لتتخذ شكل الجمل التي سيردون بها عليك.

لا أحد يسمع صوتك كغناء. لا أحد ينصت لموسيقى حنجرتك ، أو يتفرج على دوائر الصوت تنداح كالأرغفة في السماء. لا أحد

fb/mashro3pdf

يسمع حركته طالعة من القصبة أو شعيبات الرئة، من شفتين ناشفتين أو من حنك مرتجف. يلتقطون الكلمات بلا رنات فونيماتها، ويشكلون هندسة الزد. يجيبون للمحاسبة والفرز والتدقيق لأنهم يبحثون عن المضمر والمقصود. عما هو لهم، وعما هو ضدهم، عما هو ضدهن. عما هو ضدهم. عما هو لهم من عندك، وفي ذمتك ربما من زمان. يتشبثون بحبل الكلام الذي، ما أن يلوح طرفه على لسانك حتى يغدو ملكية بما أن الطرف الآخر بين أسنانهم.

أما أنا، فإني أعرف أن كلامي هراء، أحيانا كذب أو مواربة، مخاتلة لعب تنغيم. إن كلامي يقع عني، ويجلس بقربي كأشياء كثيرة، ربما هي لي، لكنها قطعاً ليست أنا. مثل صحني أو جوربي. وإني أتكلم كمن يرفع رجلاً، وساعداً، ليرقص، ليملأ المساحة حركة أو ضجيجاً بلا ذلك الجدوى الأكيد الملزم كقانون لا سبيل للتنكر له أو التملص منه. بلا ذلك الجدوى الأكيد كقصاص، كدليل سوف يستعمل في محاكمتي الدائمة المستمرة، تلك التي تسمي كلاماً مع الاخرين، حواراً، حديثاً، دائماً شيء يشبه المنافسة، القتال، القتل المتعمد، أو المنافسة، الإضافة، التشبه، التطابق، القتل المتعمد، لماذا لا يكون لي الحق بإخراج الكلام بسلام وطبيعية مني كإفراز يريح جسمي، كالغائط أو المخاط أو ثاني أوكسيد الكربون - أو المسك إن كنت غزالاً مثلاً. لماذا لا يكون لي الحق بتشغيل آلاتي

fb/mashro3pdf

التي منحني إياها الرب على الشكل الذي أريد دون إحداث مبارزة أو مزيد من الإرتياب.

لا أريدها مثلهم هؤلاء الذين راحت تشبههم. ولكن من أجلها، لا أستسلم بسرعة لعيائي الشديد. أقول لها لا تحاسبيني مثلهم، إستمعي إلى صوتي وفكّري بي بلا أفكار إن كنت تحبينني، ربما أقول لك اليوم شيئاً مغايراً، مناقضاً لما قلته بالأمس. تلك إذن أغنيتي. مشيئة روحي في التجول والبحث، وألم النقض. لك أنت إذن لم أقل كلاماً ذا دلالة لا البارحة ولا اليوم. أخبرتك إذن شيئاً آخر، خبراً آخر، بما أنه متناقض بين الأمس واليوم. خبراً عني لا أفكاراً تتخابط في النوايا السيئة. كذبت عليك، حسناً، أنظري إلى مصيبتي ككذاب وكمضطر للنفي والتملص والنكران، للمخاتلة والتخلي. أسهل الأمور ألا أكذب عليك. أسهل الأمور أن تلتقطي كلامي المتنافر، وتجمعيه، وتلصقيه ببعض وتقولي هذا كذب. أسهل الأمور أن تكتشفي فكرة، تكذّب فكرة. قولاً يكذّب آخر، إذ ذاك تكونين كالآخرين. إذ ذاك ترين كلامي، كذبي الذي لا أجهد في إخفائه جيداً، ولا ترينني. تفرحين لذكائك، وتتعصبين لنفسك. تصيرين كالآخرين فلا تحبينني. وأخسرك. وأخسر فرصتك في حبي. وحينها لن أتعلم أو أتعظ . سأزداد كذباً لا صمتاً واستنكافاً، وأسترسل في كذبي الذي إذ ذاك سيكون أكثر إتقاناً، فلا يُفرح الآخرين باكتشاف هناته. إذ ذاك أقدم لهم كلامي الذي يريحهم،

fb/mashro3pdf

ويشبههم، ويستوي الحوار. لا أقدم لهم صوتي. لا أقدم فمي الكاذب ذا الأغنية التي ترد إليّ كامل جسمي.

لكنها راحت تشبه الآخرين وتحاسبني، وحين أحاول ألا أقع في العياء السريع، من أجلها، تروح تنظر إلى كلامي بريبة المحتاط أمام فخاخ محتملة، كلما حاولت أن أفهمها مشكلتي.

حين قالت لي يوماً أنت لا تقيم وزناً لكلامي، لا تقيم وزناً للكلام بيني وبينك، تريد فقط أن تضاجعني، إن رجلاً لا يتكلم إلى امرأته هو رجل يحتقرها، ويحتقر النساء... حين قالت لي هذا يوماً كدت أبكي. جرحتني عميقاً، تعذبت ليقيني بأنها لا تفهمني. لا تفهم شيئاً من ولهي بها ومن غرامي. تريد فقط أن تضاجعني. قالت لي مرة أخرى فأشحت بوجهي عنها، وإمتلأت عيناي بالدموع. رحت أفكر بأن كل ما أعطانيه الرب من مسام في جسدي لحبها ومضاجعتها أفقده الآن، إذ هي تشكك به. أي سوء تفاهم أن ترى روحها في مكان آخر. في غير جسدها؟

إكتأب قلبي عميقاً جداً، حتى أحسسته مشجوجاً حقاً. مشجوجاً.. ويؤلمني في صدري بشكل حسي. إنها لا تترك لي خياراً. أقفلتْ عليّ المنافذ فلم أرد عليها وأنا أعرف أنها تفكر الآن بأنها حشرتني في الزاوية، وأبطلت حججي. بأنها كسبت جولة في المبارزة التي ركّبتها، وبأنها ستحملني إما على الإعتراف بخطئي أو على الأقل على مراجعة حساباتي المغلوطة، وأني بعدها سأصحح

fb/mashro3pdf

سلوكي، وسأتحسن. بقيت صامتاً وأنا أرى أن المزيد من الأخطاء، آت متعاقب ومتتال كموج البحر.

أقفلتْ علىَ المنافذ، فلم أرد عليها، وأنا أرى الخسارة باهرة في وضوحها، خسارة حسبانها بأن جسدها في مكان آخر. إنه ملك لها وحدها، وبالتعصب اللازم للحجز والمنع. وبأنها ستستعمله ضدي لتنفصل عنه جيداً وبالقدر اللازم وتقذف به في كثرة الأجساد المتشابهة، تلك التي للآخرين. تلك التي تستعمل في الحروب وفي التكاثر.

يا للخسارة. سوف تحاربني إذن. وبالطبع لن أجد لي مكاناً خارج الحرب. ستلزمني بها حتى أختارها. كما يحصل في كل الحروب. منذ القديم وحتى الآن، وغداً. سوف ندخل الآن وقتها هي ونتحارب حتى نضطر لإتقان أدواتنا إتقاناً كاملاً ناجزاً. حتى نضطر للخسارة النهائية: خسارة أن أردها إلى هذه الحقيقة الأولية البسيطة. بساطة المعطي لأنها معطي: أن روحها هي في جسدها. وليست في أي مكان آخر.

هذا ما رأيته وقد أعمتني دموعي، رأيت يقيناً لن تخلص إليه إلا في الخسارة المكتملة كهذا البدر الأحمر.

ثم...

لم يكن قد تبقى لي سوى أن أخسر الخطوات الأولى، عن قصد وتصميم، لعل معجزة تحصل. أن أتراجع مستعملاً كل الحنكة

fb/mashro3pdf

اللازمة حتى تتقدم وتربح المسافة التي أخليها.

صرت أحاول إشعارها، بأن بي حاجة للكلام إليها ومعها. وبأن لكل ما تقول أهمية كبيرة تستوجب الإنصات العميق، الفهم، والتعليق. صرت كذلك أقيس بمقاييس جعلتها للضرورة. أقيس متى يجب أن أناقضها في ما تقول حتى أعطي إنصاتي لها صدقية عالية. لا أوافق على كل شيء. أحتد، وأناقش وقد أزعل. قد أحرن كبغل، لا يعود عن حرنه الحزين العنيد إلا بالملاطفة. إلا بالملامسة الحنون. أتركها تلامسني حتى تختار هي بنفسها أن تشتهيني. أن تشتهي جسمي، وتبادر هي إلى إثارتي، لأنام معها، فيما أنا أفبرك صورة دقيقة الملامح لرجل غير مستثار تماماً، لأن رأسه مشغول بالأفكار، وبصدى ما قالته حبيبة قلبه منذ قليل...

رحت أُفلح لدرجة أني صرت أدفعها أحياناً برفق، وأبعدها عني لأتابع الرد على ما قالته منذ قليل، فتزداد إستغراقاً في إشتهائها لي وتسكتني، وأزداد أنا حزناً وقهراً على تشبهها بأنماط شائعة، على انزلاقها من بين اصابعي إلى كثرة أعرفها. تبدأ تضيع مني في جموع من أجساد النساء ذات الأفواه الكثيرة الكاذبة والملفقة والتعيسة في أشكال ذكائها الصغير، وفرحها بعبقرية الذهن الجديدة، الحديثة الاستعمال التي تفح منها رائحة أغلفة نايلون المعامل الكثيرة الإنتاج. رائحة أغراض لمحدثي النعمة. وهم الأقوى، على الإطلاق، على الكفر بجمال الغرض وقيمته، وعلى

fb/mashro3pdf

إستعماله بشكل يفقده كل ميزته، أو يسير به بقدرية قاطعة إلى ضد ميزته تلك.

كان حزني يدفعني إلى شوق استرجاعها من المكان العمومي.

كان حزني يخلصني من عذاب مراقبة ذكائها الصغير، ويزيدني إصراراً على إسترجاعها إلى حبي لها، إلى روحها الأخرى التي تصر على خسارتها، إلى جسدها الأول. أكبح غيظي وشبقي وعنف رغبتي في إختصار ما أود قوله لها بفعل قوي واحد، وأروح أتأمل وجهها متحسراً على عدم إستطاعتها رؤيته وهو يتوهج بين يدي كما الآن. أتحسر على عدم قدرتي على تمكينها من إسترجاع الذاكرة العميقة التي لجسدها. ذلك الذي كان حراً وحاراً وكاملاً وخالصاً، في اللحظة ذاتها التي استدارت فيها بويضتها الأولى، في اللحظة ذاتها التي توقفت فيها الثانية الأخيرة من طفولة ذلك الجسد، في اللحظة ذاتها التي انفجرت فيها ألم حيضها المقبل، والذي ما زال كامناً، في اللحظة التي عرف فيها جسدها، قبل أن تعرف هي بأن الرغبة آتية. قبل أن تسمع عن جسدها تتعلم وتقرأ وتحشو رأسها. قبل أن تنساه، وينزلق منها إلى أجساد النساء يتيه في الكثرة المقرفة التي للقطعان، قبل ذلك بكثير، لأني في تلك اللحظة أحبها، لأنها في تلك اللحظة هي امرأتي دون سائر النساء.

أكبح عنف رغبتي وأنشط في فعل التذكير، في فعل الاسترداد اليائس على مهل نزع ثيابها، على مهل لكي تسبقني لأني لا أريدها

fb/mashro3pdf

أن تلحق بي. أفتح لها أبوابها لكي تخرج هي بنفسها منها إليّ.

أمرر كفي من تحت الثياب، من عند خصرها إلى كتفيها أرد قميصها إلى الخلف ثم أسحب الكمين. ألصق باطن كفي باستدارة كتفيها، ثم أتبعهما بحركات دائرية، وأنا أنظر في عينيها نصف المغمضتين. نصف إغماضة كمن يحاول أن يتذكر. وحين تقدم جذعها، أنزل بيدي إلى ثدييها. أجعل باطن كفي مخروطياً لتلامس قبتهُ الحلمة الباردة، فأسرب بقبقة دمي إلى باطن كفي الساكن، لعل حلمتها تتذكر اللحظة التي بزغت فيها للمرة الأولي عن سطح الثدي الذي يروح يعلو من نفسه إلى باطن يدي، ليملؤه ضاغطاً عليه...

أفرح بها، وأنسي إذ ذاك حزني. ألصق جسمي بجسمها على كامل المساحة، حتى الساعدين واليدين، حتى نصير على شكل صليب، وحتى أستطيع أن أضم باطن قدميها بظاهر قدمي، وأعجب لتناسق طولينا، قامتينا، أفيض عنها بالقدر اللازم الذي يجعلني قادراً على تغطيتها ومنع البرد عن عريها، وقادراً في مساحتي المتبقية على ضمها في كامل جسمها وإلى آخره.

تضيق بي. تضيق بي حين أبقى طويلاً. تأخذ بالحشرجة المصطنعة الضاحكة تشتكي من ضيق تنفسها ومن عدم إحتمال وزني. ذلك لأنها تنسي. تنسي أنها كانت منذ قليل تتنفس مني، ملء رئتيها.

حين تميل إليّ وتحاول الإلتصاق بي، أضع ساعدي موازياً،

fb/mashro3pdf

حاجزاً، فتفهم أني أريد الآن أن أكون وحدي. تعتقد أني أرتاح، وأسترد أنفاسي. كيف لا تتساءل لماذا تغيرت ولم أعد أوسّدها ساعديّ وأرفع ركبتها ووركها إليّ. لا تتساءل الآن. وأنا أتركها تسير إلى حيث تريد أن تكون، في الأمكنة العامة التي لا ذاكرة لها.

لكني أنا أتذكر، أتذكر سبب غرامي بها أول زمان تكوني. حين كنت جنيناً اولياً، في الشهور الأولي، حين كانت كروموزوماتي كلها مؤنثة. كلها «xx» وقبل أن تدخل «y» في شهور سكناي الأخيرة في بطن أمي وتحولني إلى ذكر. حتى ذكراً كنت سابحاً في مياه الرحم الأنثي وحتى ذكراً لم تكن ذكورتي معطاة، أتذكر ما قبل نضالي المستميت لأن أكون رجلاً قبيل ولادتي وبعدها، وبعد بلوغي. وهي تنسى.

أنا أخسر، وهي تنسى أن روحها ليست في مكان آخر.

fb/mashro3pdf

(١١)

أعرف، حين أعود من نسياناتي الكثيرة أني لن أراها ثانية. أتساءل في أي بقعة مشمسة من الحديقة كنت أراها جالسة في دائرة منقشعة، بين ستائر المطر الرمادية. أمشي في الحديقة إلى قبالة نافذتي. أنظر فلا أرى نافذتي. لست أكيداً أبداً أن هذا المربع هو نافذتي إذ لا أرى نفسي خلف زجاجه. والمربعات تتشابه كثيراً. النوافذ تتشابه كثيراً من الخارج.

أعرف كذلك، حين أعود من نسياناتي الكثيرة أن فصولاً سارت، أن فصولاً تعاقبت ومضت. أرى أننا في الربيع لكثرة العشب، ودفء الهواء، ونشاف التراب. وحين أعود إلى الوراء لأرى نفسي في الفصل السابق، لا أجد الشتاء ، أجد أني نسيته بكامله. وأخمن

fb/mashro3pdf

أني قضيته ربما تماماً كالشتاء السابق، فلم يبق منه ما أذكر، لم يبق منه ما يوصلني إلى الربيع الذي يحيط بي الآن.

تنقصني فصول بأكملها لكني لا أحزن لنقصانها، أخمن أنها مضت رائقة هادئة متشابهة. لكن ما يثير حنقي هو نقصان أشياء لا أعرفها. تعوزني ولا أعرفها، ولا أعرف كيف أتجه للبحث عنها. لا أعرف هل هي في أشياء وأغراض أم في جسمي وملحقاته وإحتياجاته. أشياء تعوزني ولا أعرفها.

لذا أتوتر أحياناً على نحو مفاجئ حين يرتفع فيّ إلحاحي ويصبح مضنياً، أروح أنظر في الأرض وأمشي، وأبحث فيها أبحث بعيني ثم أروح أحفر برجلي فأقلب حجارة صغيرة، وأزيح التراب. أنحني وأرفع ورق الأشجار وأكوام الغبار المتقطن عند جذوع الأشجار. محموماً أقول سأجد شيئاً. أنسى أني أبحث عن أشياء بي حاجة إليها وتنقصني. محموماً أقول سأجد غرضاً نسيه الناس. سأجد لي ما قد يكون سقط منهم سهواً أو أضاعوه ومشوا إلى غيره. لأن لهم غيره كلما مشوا. لأنهم ليسوا مثلي أنا الذي أعرف أني لن أرث من حياة أهلي أو موتهم ، وأني، لن يمنحني أحد مقتني له يقتنيه، أو إقتناه، يتواتر إشتهائي لأن أعثر على شيء، يتواتر إشتهائي، ويروح يسحبني، يشد خطواتي، ويوقعها أو يضرب إيقاعها. فأمشي في كل إتجاه كأني ذبابة تطير.

أتشهّى في نفسي أن أجد جزءاً، قسماً من شيء. شيئاً ناقصاً

fb/mashro3pdf

منقوصاً. الناقص ليس لأحد، ولن يطالبني أحد به، إذ لا تثبت الملكية إلا في كمالها. في وحدتها وتماسكها. ما يكون جزءاً من إنفراط وإنكسار وتفتت، لا يكون لأحد. أتشهى أن أجد ولاعة دون حجر القدح. مزقة من جريدة أو لمبة فقدت معدنها. قلما دون ريشته، كرة مثقوبة دون هوائها. كرة دون هوائها، أو لا يحيطها هواء قد يدخلها. يدخلها ويعيد نفخها. كرة دون رئتها، أو رئة ليس بداخلها هواء.

أتشهي مثل هؤلاء السائرين في الحديقة النظيفة تماماً أن أجد غرضاً لا يطالبني به أحد. لأتعصب لإمتلاكه حتى الموت. كما حصل لجابر حين وجد يوماً غلاف رصاصة كبيرة من نحاس قرب جدار الحديقة، وأبى أن يتخلى عنه. تجمع عليه المرضون. لا باللين ولا بالقسوة. ضن به كنور عينيه. إستمات وهو يجمع كامل جسمه حوله ليحميه. أبداً، كان يزعق، إنه لي. ونحن حوله كنا نصرخ مشجعين إنتبه يا جابر، لا تعطيهم الرصاصة إنها لك. كنا كلنا نأمل أن يحتفظ بالغلاف النحاسي الكبير، ونمني النفس أن يسهو عنه يوماً فنسرقه منه، أو هكذا خيل إليّ من نواياي.

لكن هذا الغرض الجميل ضاع من جابر.، أخذوه منه في شراستهم وتعصبهم، وعصابهم للنظافة واللملمة والتفريغ. في تزليطنا من كل غرض نحبه ونريد الإحتفاظ به. نريد الإحتفاظ به، ونحن نعلم أنه ناقص ولا ينفع لشيء. ننتقيه لأنه كذلك. نختاره

fb/mashro3pdf

لشدة تواضعنا وتخلينا، لأنه من نفاياتهم التي أنقضت فائدتها، كل أشكال الفائدة. ومع هذا لا يطيقون رؤيتنا مع ما نملك. يعتقدون أننا سنسترد عافيتنا بتعرينا وبفراغ ما حولنا ولنا. كما رأت أسماء في إحتفاظي وضني بغلاف لوح الشوكولا الزاهي اللون دليلاً على إستمراري في مرضي، وكلما راحت تقنعني برميه وبعدم فائدته، إزددت توتراً وإصراراً وخوفاً على ضياعه، واستغرقت في تمليسه وطيه وتدبيب زواياه، واستغرقت في دهشتي من إصرارها الكرية على رميه، وفي تساؤلي عن لزوم زيارتها التي تقضي نصف مدتها في إقناعي برمي ما يعز عليّ إلى هذا الحد. إلى الحد الذي صار يجعلني أستفيق في الليل جزعاً باحثاً عن الورقة اللامعة الخضراء، حيث بقرة بنية تبتسم في حقل من حبات البندق.

أعرف أنه تنقصني فصول بأكملها لكني لا أحزن لمعرفتي وأتساءل أحياناً، ممداً على المقعد الخشبي في الشمس الطرية ومتأملاً أظافري البيضاء الرقيقة، أتساءل عما تراني أحب أن أعثر عليه في بحثي المحموم الذي يهد جسمي لساعات حين يداهمني هكذا على حين غرة، أقول معاتباً نفسي، أني ما زلت أتصرف وكأن المستشفى مكان للعبور لا للإقامة. أو كأن غرضاً ناقصاً لا حاجة لأحد به سوف يشعرني بأمان الإمتلاك، ذلك الإمتلاك الذي يشبه أن أعود إلى الخارج، إلى حيث رعية الرب المحبوبة المختارة.

دلواً دون قبضته، دون اليد، حقنة دون إبرتها، دون العرق،

fb/mashro3pdf

رباطات دون حذاء، دون القدم، دون خطوته، ثدياً دون امرأة، دون إنتفاضة تحت يدي.

كالحليب ، كالحليب.

كالحليب تطلع فيّ هذه المرأة، كالحليب يطلع في ثدي المرضعة، ويبقع أرديتها، يطلع غيابها فيّ أبحث محموماً ربما عن ثديها دونها لأني أعرف منذ تركتني في المرة الأولى أنها لن تعود . لن تكون. وفي غياب ثديها النهائي يطلع في حليبها الحار متدفقاً من يدي ورأسي.

يا الله يا الله. كيف تركتني حين تركتني.

حين هبط الليل كثيفاً، ولم تعد إلى البيت، عرفت. قالت لي أسماء: إنه القصف الكثيف لا الليل، منعها من العودة. ثم قالت لي أسماء: ما كان ينبغي أن تردها بالقوة تلك المرة، ذلك النهار الحار، على الحاجز الكبير، فهي قد أخبرتني. لكنها الليلة لن تعود بسبب القصف. ستعود غداً، سترى.

تمنيت لو ماتت أسماء مع أمي حين ماتت أمي، تمنيت لو ماتت أسماء وبقيت أمي. أو أبي. لو ماتت أسماء.

والآن. ها أني جالس في كنبتي أُعمل معرفتي بأنها لن تعود، وبأنها تركتني وعادت إلى أهلها. كان القصف يتعاظم، ويتعاظم نسياني له، وكذلك وحشتي، بعد أن نزلت أسماء من الشقة إلى الملجأ مع جيراننا في البناية. كنا في العاصمة.

fb/mashro3pdf

الآن. أنا جالس على كنبتي أعمل معرفتي بأنها ليست هنا. يفرغ منها رأسي وجسمي وأعمل معرفتي بفراغي. أعمل معرفتي بفراغي لأختصر الوقت الذي سيسير فصاعداً فارغاً منها. أُعمل معرفتي بفراغي.

يصلني في رأسي الفارغ رنين هاتف بعيد. رنين صاف متواصل متخلص من هرج القصف ودوشته. رنين صاف وخافت وواضح ومستقيم إليّ مباشرة. رنين طويل ولا يتوقف.

أدخل إلى حيث الرنين. في العتمة التي تشبه المغيب اللطيف أجلس قرب الهاتف وأرفع السماعة.

آلو.. أقول آلو. أسمع صوت امرأة. صوتاً متعثراً مدهوشاً.

تقول المرأة إن صوتي ليس صوته، لكنها فرحة بي .تقول إنها منذ سنوات طويلة لا تكف عن طلب الرقم وعن سماع الخط الطويل الذي يرن في البيت المقفل الدرفات. تعرف أنه غادر. أنه ترك بيته مقفلاً في عتمته، لكنها تطلب الرقم بإستمرار لكي تستطيع تصور البيت وتذكر تفاصيله. فحين تعرف أن الهاتف يرن في الداخل تستطيع رؤية الهاتف، ويقظة الأشياء التي تحيطه بفعل الرنين الطويل. تسترجع أثاث البيت كاملاً في عتمته التي تحبها، وتتأكد وتطمئن على فراغه من صاحبه، فهي بحاجة لمعرفة هذا الفراغ والتأكيد منه، بحاجة لتحسس الرجل الغائب لأنه السبيل الوحيد لتذكره. تقول لي إن الرنين يصير عندها كالصورة الفوتوغرافية التي تدل على صاحبها، وعلى غيابه في الوقت نفسه. وأن متعة سماع

fb/mashro3pdf

الرنين هو في متعة إستذكار الرقم وفي متعة طلبه كأي رقم آخر من الممكن أن يرن في أذن من نطلبه. أطلبه هكذا، تقول لي، وكأنه موجود. أتمرن على إستذكاري الرقم الذي أعرف تماماً أنه لن يرد على رنينه. متعتي صوت الرنين يهز البيت، ويجعل داخله يستفيق بي وكأني أنا نفسي في الداخل.

ذلك ربما لأنه تركني دون أن يخبرني. علمت من حارس البناية الذي يحرس بيته من هجمات المهجرين أنه سافر ولن يعود. كمن يموت دون أن يرى الموت قادماً. دون أن يعرف ولو لثوان قليلة. هؤلاء، يقولون، يمكثون بيننا لوقت طويل، ينظرون معنا، إلى جانبنا، إلى موتهم ويتفرجون عليه. ويلزمهم وقت أطول بكثير من ذلك الذي يلزم أحباءهم للتصديق والإذعان.

يوماً ما سأتوقف عن طلب الرقم وسماع الرنين الطويل، تقول المرأة،سأتوقف عن ذلك حالما تكف رغبتي وتتعطل. رغبتي في أن أرن داخل البيت وأوقظ هواءه الراكد، رغبتي في أن أكف عن رؤية الأثاث اللطيف الذي حولك. أرجوك أن تخبط قليلاً على الأرائك النظيفة حيث سأخلع حذائي وأتمدد الآن لأني أحب أن أندف قطنها الطري كما أفعل دائماً. سأرفع قدمي على الطاولة الخشبية الواطئة، وأبعد تماثيل الكريستال المنمنمة بحافة قدمي اليمنى قبل أن أزفر عميقاً، وأنا أتحسس مخمل المقعد الحريري وتقعره الخفيف تحت وركي.

fb/mashro3pdf

الفصل الثالث

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

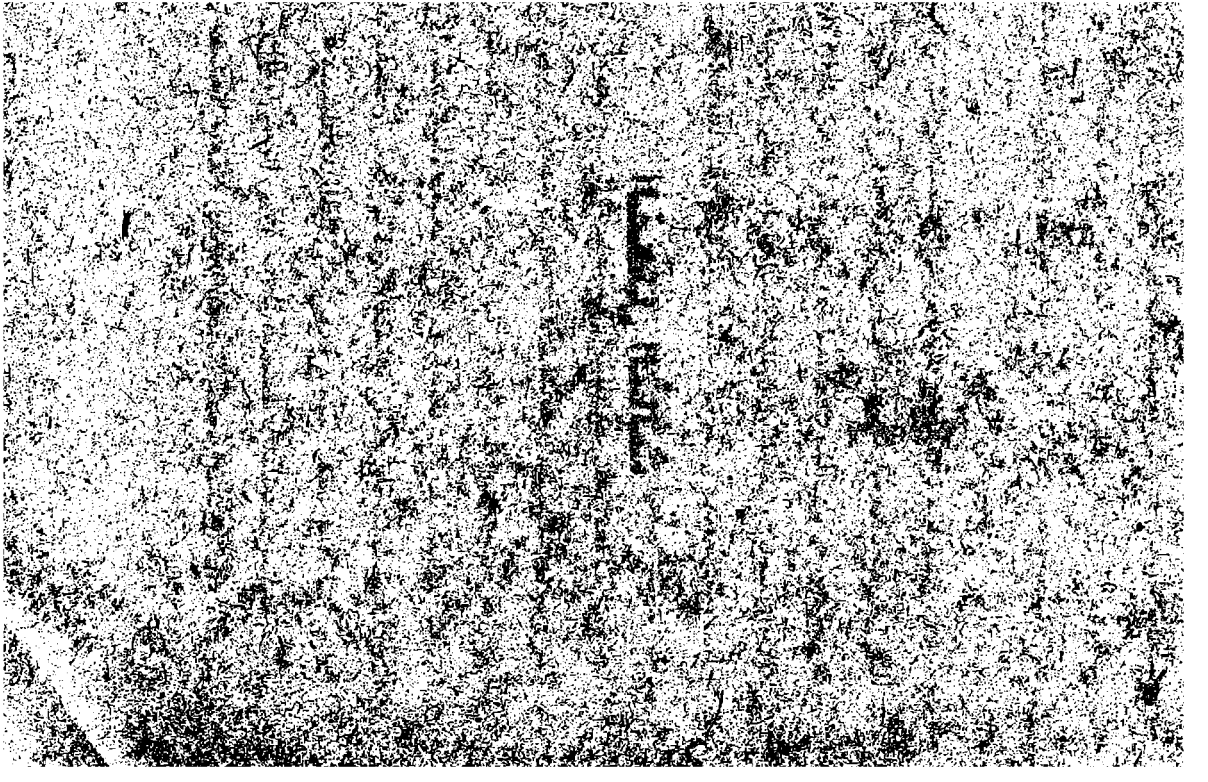

(١)

حين صارت تلك المرأة بيتى وأهلى عرفت أنى فقدت بيتى وفقدت أهلى لأنها لن تكون أيا منهم.

لا تستطيع إمرأة ليست من أهلك أن تكون أهلاً. تستطيع فقط أن تفقدك إياهم. لأن دمها هو لذكرياتها، ورحمها لناس سيجيئون ليصنعوا معها بيتاً لها. تقرع بابه فيسألون من الطارق قبل أن يزلقوا المزلاج.

مكثت طويلاً. مكثت حتى فقدت كل ما كان لى.

شقتنا فى العاصمة، لم تعد البيت الذى شغلته أمى. لم يعد يشبه ذلك الذى كنت أعرفه غيباً، وأنا أركض فى مماشيه، وارتمى على مقاعده. تلك الرائحة الصغيرة، التى كنت أشتمها وأنا أصعد

fb/mashro3pdf

الدرج عائداً منهكاً «هفيان» من جوعى، إختفت تماماً. لم تغيرا، هى وأسماء، كل شيء دفعة واحدة. كنت كلما رجعت إلى البيت أجد فيه إضافة أو نقصاناً. وكأنهما بذلك تلهياننى وتخدعاننى عن استيلائهما على البيت.

أسماء صارت كأنها أختها هى لا أختى. حين ترى امتعاضى تعتقد أن السبب هو المال الذى تصرفانه على اللعب بألوان ومساحات البيت دونما حاجة حقيقية. تفترض أسماء أنها تساعد فى التأسيس لسعادتى وفى بنيان عش غرامى، وتثبيت ملكيتى فيه، حتى يغدو بيتى لا بيت أهلى. لكنها تأتينى بحجج واهية لدرجة يصعب على الأبله تصديقها، كأن تقول أن القصف الأخير الذى طال شقة الجيران وتسبب فى إنهيار زجاج النوافذ كلها قد مزق الستائر القديمة التى لا يمكن رتقها، أو كأن تقول أن إنهيار جدار الصالون الغربى، وبقاء البيت فاغراً إلى الشارع طيلة المدة التى قضيناها فى القرية، قد ذهب نهائياً باحتمال غسل وتنظيف قماش المقاعد فوجب استبداله، وبالتالى تنسيق الألوان الجديدة مع بعضها. وشراء درسوار جديد صغير بدل ذلك ذلك القديم المهشم الذى لا يمكن لأى نجار فى العالم إصلاح خشبه بكلفة معقولة.

لكن أسماء امرأة مثلها، مهيأة مثلها للنسيان والإستبدال والقفز إذ هى تعرف بالغريزة أن ذاكرتها هى برسم الإستبدال ولا يهمها أن

fb/mashro3pdf

تترك أهلها، وتغير إسمها، وتسير. تخلع وتلبس وتسير. ربما لهذا تنجح النساء كثيراً فى مجال الجاسوسية، إذ لا تروح جذور أصولهن بعيداً. ربما لأن طفولتهن دائماً قادمة حين سينجبن.

كيف كان يمكننى أن أواجههما أو حتى أن أحاول التشكى أو الإعتراض. حين أراهما متقاربتى الرأس تتوشوشان، وتتضاحكان فى زوايا البيت، متفقتين بالإشارة ودونما حاجة للكلام. كنت أتساءل كيف لا تخشى اسماء منها وهى ترى توترها، حين يهدأ القصف، وتنفتح الطرقات على المعابر بين المنطقتين. كيف توقن أسماء أن هذه المرأة مقيمة ولها هناك أهل وقوم وزوج ولا تذكرهم إلا فى توترها الخفيف، حين تعرف بأن فى إمكانها العبور والذهاب إليهم. وكيف تفهم أسماء أن تترك هذه المرأة كل ما لها وأن توحى - لإنقطاعها الطويل - بموتها لأهلها، وتحتمل ذلك. تحتمل أن يعتقدوا أنها ميتة، ولا تملك شجاعة إخبارهم بأنها هناوبأنها اختارت البقاء. من أجلى. من أجلى أنا الذى تستميتان كلتاهما كل يوم فى حبى، وفى سلبى هواء البيت ووقته. ذلك الذى كان لأمى والذى صارت حركتى فيه مشروطة بتوزيعه الجديد. الهجين. النغل.

أسماء البلهاء كانت تعتب علىّ حين لا أكون لطيفاً. كما تقول. كما حين لم أحمل معهما الدرسوار القديم، بعد أن خلعنا درفاته ليسهل حمله والنزول به على الأدراج. لم أعاونهما على رميه فى

fb/mashro3pdf

البورة القريبة. بقيت أياما طويلة أتفرج عليه من خلال الزجاج، تحت الأمطار القوية، تنتفخ أخشابه وتحت الشمس الساطعة تتفلع قشرته التى كنت أتمارى على لمعانها، حين أختبىء تحت الطاولة الكبيرة لأثير هلع أمى أو لأجعلها تدّعى هلعها من فقدانى، حيث تروح تمثل فى أرجاء البيت متناسية حتى اللحظة الأخيرة أن تنظر تحت الطاولة. ثم تجدنى.

زهقت من البيت ومن لعبهما الأرعن فيه. كنت أخرج كثيراً، وأتركهما تفعلان ما تريدان بعد أن أيقنت بأنه لم يعد بيتى. لكن النساء يعرفن أن الحروب التى تخلى منهن الشوارع، تمكنهن وتزيد من سيطرتهن على البيوت. البيوت التى لا كهرباء فيها ولا مياه، وتلك التى فقدت جزءاً من هيكلها تصير مسرحاً أكثر طواعية لسلطتهن، إذ تسهل فيها إعادة التنظيم ويأخذ كل تغيير مشروعيته على أرض صلبة. وحن يصير البيت مكان الإحتماء الوحيد، تترك النساء الرجال يخرجون على كيفهم، رابضات على يقينهن من العودة ومن الحاجة البدائية للإحتماء. بصبحن أكثر تساهلاً فى مد الحبل إلى الشارع. وفى الحراسة.

لكن، ترى لماذا كان، حين يتعاظم نفورى من تلك المرأة نهاراً كان يشتد غرامى بها وتعلقى بجسمها فى الليل، تعلقاً أنجح فى إخفائه تماماً حين لا أكون إلى جانبها فى الفراش لكن لماذا كنت

fb/mashro3pdf

مصراً على ذلك الإخفاء متعصباً له؟

إنما كل ذلك بقى فى حدوده المعقولة. أكثر مدعاة للحيرة منه إلى أى شىء آخر. كل ذلك كان قبل أن تتركنى فى المرة الأولى وأتبعها لأردها بالقوة عن الحاجز على معبر المتحف. ذلك أنى عرفت أننى لن أستطيع المكوث طويلاً تحت الأشعة البيضاء التى وضعنى هروبها تحتها... تلك الأشعة البيضاء التى صارت النقطة القصوى من عذابى هنا فى المستشفى. فهمت ربما من مقارنتى لهاتين اللحظتين فى حياتى لماذا يعذبنى الضوء إلى هذه الدرجة. لأنهم هكذا يفعلون بمن يملك سراً يريده آخرون. تحت الأشعة يضعون المساجين الذين يملكون أسراراً. يعذبونهم ليخرج السر فلا يخرج. حتى يسلطوا عليهم ذلك الضوء الذى يعقم داخلهم ويفرغه. ليحنطوهم. لتتوقف تحت الأشعة الحارقة كل أنزيمات الخلايا. تلك التى لما قبل ولما بعد . تلك التى لحياة الخارج وتلك التى لحياة الداخل. الأشعة التى تسحب الحرارة وتجمد، تجلد الأغراض بلون الجليد الأبيض المشع. لكى تسبح فى فراغ الضوء وتعقيمه، وتستقيم فيه. الضوء لكى لا يكون هناك شىء فى الخارج، لا شىء فى الداخل. لكى يتوقف المجانين عن التلوى والإنقباض والتقلص، ويستووا فى أفق الغرقة وهوائها الراكد. لكى يقلب السجانون أصحاب الأسرار عن إنطوائهم عليها، كما تقلب كفاً من الجلد،

fb/mashro3pdf

بأصابعه الخمس، إلى الخارج.

ليلة هروبها لم أنم. قعدت تحت الأشعة طيلة الليل. وفى الصباح استبقت موعد فتح المعبر فى السادسة صباحاً. فى الخامسة كنت أتربص لها على حافة الطريق الوحيد قبل الحاجز العسكرى بمئة متر. لا يمكن أن تمر ولا أراها. لن تكون داخل سيارة خاصة، وستنزل من سيارة الأجرة لتسير على قدميها قبل الحاجز وبعده، فى المنطقة المفرغة للتفتيش.

رحت أنتظر، وأساعد نفسى فى هدوئها. أقول سأبقى هادئاً إذ حالما ترانى تتقدم نحوى. تتأبط ذراعى ونعود.

كل العابرين تقريباً كانوا من المشاة. السيارات فقط كانت لأصحاب التصاريح والمهمات، وللشخصيات. سيارات قليلة وغالية الثمن ومسرعة.

وسيارات الأجرة تعود، عبر مفارق بعيدة . ينزل منها الناس ليمشوا رافعين أكياسهم الكثيرة، وصناديقهم الكرتونية. يسيرون بتؤدة، ولا يلتفتون إلى الخلف، ثم يتجهون إلى نقاط التدقيق بالهويات والأوراق الشخصية حيث يجتمعون منتظرين أدوارهم بلا قلق. يصفون أكياسهم، وصناديقهم، ويخرجون أوراقهم دون تعجل أو تأفف. يبتسمون للعساكر والمدنيين الذين لا يدققون كثيرا... ثم يرفعون أكياسهم وصناديقهم الكثيرة ويسيرون. فى الإتجاهين

fb/mashro3pdf

المتعاكسين. ينزلون أكياسهم وصناديقهم مرة قبل الحاجز، ومرة بعده، ثم يرفعونها ويسيرون بالهدوء نفسه، إلا أن وجوهم، بعد العبور إلى المنطقة الأخرى تتخذ سحنة من استفاق على عجل لينصرف إلى أمر شاق أو لمهمة يصعب تنفيذها، كأن لابد من ذلك. ثم توزع سيارات الأجرة ركابها حسب المناطق الداخلية بدقة وتنظيم يشبهان سير الأشياء بقوة دفعها الطبيعي، وتبعاً لقانون يتكرر منذ أزمان بعيدة بحكمة ورتابة لا يمكن أن تداخلهما أى فوضى أو خلل. فالساحة المفرغة للعابرين تحت الشمس الساطعة واضحة الوظيفة، لا تشوبها شائبة الأشجار أو الظلال أو مظلات الأبنية، ولكى يعمد أحد ما إلى شل حركة العبور وإنتظامها، لم تعد تكفيه خطط القناص الفردية التى تخترق هذا القانون إختراقاً إذ سدت على القناصة المغامرين كل سبل التعكير، وصار الأمر يحتاج إلى وابل من القذائف والصواريخ أى إلى قرار عسكرى يتخذه جيش منظم، تبعاً لقواعد يتم تدارسها على خرائط كبيرة تفرش على طاولة يجتمع حولها القواد. لم يعد قانون الساحة المفرغة للعابرين تحت الضوء الساطع، يحتمل رعونة الصدفة أو دلع الفوضى، تلك التى تحكم ساحات القرى والأرياف.

fb/mashro3pdf

(٢)

كانت الساحة الفضاء الذى يلتقى فيها رنين أجراس النحاس الضخمة لقبب الكنائس الثلاث الكبرى بشفعائها الشديدى القدرة، الكثيرى الحنان. أسيادنا وأباؤنا. حافظوا دماءنا من دنس الخلط وأبخرة الأمزجة ومن العار والإنفكاك. كان الرنين المعدنى محفوظ الصفاء خالصاً، لأن هواء المرتفعات الذى كان يحمله ويرقق دوائره هواء ناشف، لا تشوبه رطوبة تعكر ذبذبة طنينه، أو تثقل من مغنطة ذراته.

الليل الذى يهبط ثقيلاً فى شتاء القرى المرتفعة، السواد الذى يهبط باكراً فى أشعة الشمس الضامرة الصفراء ، كان لا يظهر من الثلج الكثيف إلا بياضه النظيف، مخفياً تماماً ذلك الذى ينزّ ماءً عكراً بعد أن هرسته عجلات السيارات وجزمات الأولاد والرجال،

fb/mashro3pdf

وذلك الذى لوثته السوق بالوحول وبقايا الخضار والقشور وبراميل الزبالة المترعة، وأيضاً بدماء المواشى وبقايا روثهم أمام دكاكين الجزارين.

المصابيح العمومية كانت مطفأة كالعادة. اقتربت منى أسماء، وأدنتْ شمعتها حيث كنت أقف خلف النافذة ، فلم أعد أرى من الخارج شيئاً إذ جعل ضوء الشمعة زجاج النافذة كالمرآة يعكس داخل الغرفة. رأيتها منعكسة على الزجاج، منحنية على قدميها تنزع الوبر عن جوربها الصوفى. أخذت الشمعة من يد أسماء، وأطفأتها ورحت أتابع النظر إلى الساحة.

لم أتبين أحداً من جمهرة الرجال الواقفين فى البرد. عرفت أنهم يتكلمون حين رأيت كتل البخار تتدافع من أفواههم. وقبل أن أعود إلى كنبتى قرب موقد الفحم تلاشى رنين الأجراس، ولم يتبق سوى واحد واضح ورتيب. فقالت أسماء إنه جرس السيدة، وأن الصلاة ستكون مساء اليوم فى كنيستها.

الأصوات الخافتة الخفيضة البعيدة كانت تقترب بتؤدة حتى بتنا نسمع الصلوات، ونتميز الكلام واضحاً فى ترداد: إضرعى إلينا. لم أعد إلى النافذة مثل أسماء، إذ كان باستطاعى، من كنبتى، أن أراهن.

النساء والأولاد معهن. كن يسرن فى سواد المساء الذى ما زال

fb/mashro3pdf

رقيقاً عند السادسة فتبدو أثوابهن أشد إسوداداً عند حوافى الأزقة، حيث الثلج ما زال شديد البياض. كن يسرن حاسرات الرؤوس، خلف صورة العذراء، وفى أيديهن شموع مضاءة تجعل نصفهن الأعلى كأنْ مفصولاً عن أقدامهن الحافية التى تخوض فى عتمة البلل القارص، عند مرورهن بصلواتهن الخاشعة، كانت تنفتح الأبواب وعلى العتبات الواطئة ترسم نساء إشارة الصليب، وتلتحق أخريات أقل خشوعاً ومنتعلات أحذية جلدية ضخمة. وقبل أن يدلفن فى المنعطفات، وتعرج الأزقة الموصلة إلى الساحة كانت ترتد وجوه الرجال مثقلة إلى الداخل، فيما يبقى أولاد على العتبة ناسين صحون الحساء تبترد فى الداخل.

تتابع النساء تراتيلهن، فيما يستمر انزلاق الليل على شموعهن، ويطلع هواء بارد يحمين منه شعلة الشموع بباطن اليد. وربما ارتفعت أصواتهن قليلاً وهن يقتربن من الكنيسة إذ يطغى إذ ذاك صوت الجرس الكبير. عند الساحة التى تتلقف قبة السيدة الغائبة الآن فى ليلك السماء تكبر جمهرة النساء والأولاد إذ هناك تلتقى مسيرات الصلاة القادمة من الإتجاهات الأخرى.

يتملك الرجال ما يشبه الخوف فيخلون لهن المكان كله، ويلتصقون بالجدارن. آخرون يهرعون إلى الجرس الكبير يقرعونه بكل ما أوتوا من قوة، فيما تركع النساء وتعلو الصلوات. وحدها

fb/mashro3pdf

حنّة تفتح ذراعيها واقفة وتكلم العذراء بنفسها ومن دون تراتيل وصلوات، تطلب منها أن تحمى قريتنا، وتمحق عدونا، تطلب باسمنا جميعاً، لأن حنة هى بابنا إلى السماء، إلى حيث عرش شفيعتنا عند إبنها تطلب كاشفة عن صدرها أن تمطر كبريتاً وناراً على من يتهدد أبناءها وعبيدها. فتطلع الأيدى إلى الرؤوس غير الحاسرة بعد وتلقى الأغطية بحركات سريعة إلى الظهر أو الأرض ثم تنزل إلى الصدور فتفتحها على عريها لكى تكون القلوب حاضرة مكشوفة تقرع عليها النساء بقبضات ثقيلة قوية، فتضرب كطبول صغيرة بإيقاع الإنسحاق والورع الملح خلف جمل القديسة حنة، الآخذة بالتسارع والتفكك. وبعد ذلك يخرج الكاهن، ويدعوهن للدخول وبعد أن تعيد حنة الغطاء إلى رأسها، تتقدمهن إلى الداخل.

ذلك أن حنة هى التى بعد أن فقدت أخويها راحت ترقص وتزغرد رافضة دفنهما قبل أن يحمل لها الشباب جثتى قتيلين من الأعداء لتشهدا الصلاة والدفن قرب فوهة القبر. حنة، هى التى خرجت تصرخ ليلاً أمام بيتها ويداها تنضحان بالزيت.

السطوح الصغيرة امتلأت بالرجال الذين راحوا يطلقون بنادقهم، تلك القديمة التى تفقع دخانها فى الهواء، وتلك الحديثة الرشاشة التى كانت لعلعتها الطويلة تقطع صوت الأجراس التى راح رنينها ينهمر حاراً حارقاً وسريعاً كاشتعال الكبريت.

fb/mashro3pdf

جميعهم ركضوا باتجاه بيت حنة وهم يولولون فرحاً. كان فرحاً لكنه أنزل فى سحناتهم هيئة الهلع أو الألم الذى لا يحتمل. ركضوا بإتجاه بيت حنة وأكثرهم لا يعرف الخبر وكأنما لا حاجة بهم لذلك، خمنوا أنه أمر عظيم حل لتوه على كوكبهم فركضوا بإتجاهه. كانت القناديل الغازية الصغيرة تخرج من الأبواب التى يتركونها مفتوحة، ثم تتجمع دون أن تتوقف لتنزل بعد أن يتكثف الضوء فى المنحدر القاسى والضيق الذى سيفضى إلى مصطبة البيت. دون أن يلجوا الباب الصغير، كانوا يرون التمثال الأزرق والأبيض يطلق زيته.

بعض المصابيح راحت تعود متسلقة المنحدر لتتفرق سريعاً فى كل إتجاه إذ ينبغى الآن العودة بالقطن الذى سيشرب الزيت ويمرّر على أوجاعنا فنبرأ.

ظلت العذراء ترشح زيتاً لأيام طويلة مكنت الجميع من الزيارة. أتت أقوام من أمكنة بعيدة، وحملت قطنها الناشف لتعود به مروياً ملفوفاً بالعناية التى تلزم وبالأوراق المشمعة التى تحفظ من التبدد والرشحان والجفاف. حتى الكهنة المجهولون الآتون من أمكنة بعيدة أقاموا قداديسهم تحت عدسات الكاميرات القوية الضوء فى بيت حنة التى لم يعد أحد يراها حتى فيه، إلا فى ما ندر. قالت نساء من جاراتنا إنها سافرت إلى روما، بعد أن طلب البابا رؤيتها وقالت أخريات إنها لكثرة ركوعها وصلاتها نسيت أن تأكل، فضعفت جداً

fb/mashro3pdf

ومرضت فحملوها إلى المستشفى. وقالت أخريات إنها باتت غير بائنة حتى وهى موجودة بيننا لأن العذراء تخطفها إليها لتكلمها على حدة ثم تردها، لا نعرف متى وكيف. حتى عمرها لم يعد بائناً فى جسمها ونسيت النساء حتى من صاحبات أمها أو جاراتها القريبات متى ولدت حنة، وتردد أنها فى العشرين أو فى الأربعين أو الخمسين.

ما عادت حنة تكلم أحداً من أهل القرية، إذ لم تسمع عن لسانها جملة واحدة مفيدة. وكان صمتها يزيد من إحتمال تعرضنا لخطر عظيم حسب ما كان يقول الرجال بكلامهم القليل والذى كان يفضى دائماً إلى وجوب التحسب ومضاعفة الإستعداد لتقديم التضحيات، بعد أن تبين لهم أنهم بعيدون جداً فى مرتفعاتهم عن نسيج المدن وأحوال العاصمة وفتات كلامها. وأن حظائر مواشيهم فى الحقالى المتاخمة هى التى تشكل حدودهم الآمنة القصوى. كانت حركة الرجال القليلين من بيوتهم إلى الساحة ومنها إلى فتحات الأزقة الضيقة، لا تبدو على توتر إلا حين يمر بهم الشباب المقاتلون على عجل ودون تحسب أو توقع.

بعد أشهر قليلة خرجت حنة مرة ثانية تصرخ فى الليل. لم يصعد الرجال إلى السطوح لإطلاق بنادقهم. النساء لم يزغردن، وضعن أيديهن على رؤوسهن، وركضن ناسيات أولادهن فى البيوت أو على

fb/mashro3pdf

عتباتها. تحلقوا على بعد أمتار من حنة الصارخة فى الليل كأنهم يخافون الإقتراب. قرّب حاملو المصابيح الغازية مصابيحهم ليروا يدى حنة التى كانت تصرخ، رافعة كفيها فى وجوههم.

قالت لهم إن العذراء لم تعد ترشح زيتاً صافياً بل زيتاً عكراً لأنه الآن غدا ممزوجاً بالدم. الدم الدم. العذراء ترشح دماً لأن الآتى عظيم.

قالت لهم إن المصابيح الغازية لا تنير. ولا الشمع الأبيض. إن السواد الآتى لن يشقه سوى الشمع العسلى الأصفر. إننا العبيد لن نرى عندما يحل علينا اليوم الأسود، لن نرى أصبع يدنا إن لم نضىء شمعاً عسلياً، غمامة سوداء عظيمة سوف تنزل علينا من السماء فتنكسف الشمس وتغيب نجوم الفلك ويحل ليل الرب.

ليل الرب. فالعذراء ترشح مع الزيت دماً أحمر قانياً.

يا الله قال الناس... علينا بالشمع العسلى. ودخلنا فى زمن البحث عن الشمع العسلى حتى نفد من آخر القرى البعيدة مع أن الناس تستروا على السر ضناً وتحسباً. ثم إكتفوا بشمعة أو إثنتين لعائلات عدة تسكن فى بيوت متقاربة لأن أيام القصاص هذه لن تدوم طويلاً.

قعد الناس ينتظرون بعد أن هيأوا شموعهم. راحوا يتحدثون بأنها تؤلف ولا تؤلفان حسب النبوءة التى لم يتوصلوا إلى تبين مصدرها

fb/mashro3pdf

الأكيد. الخورى أيضاً قال لهم ليتعظوا، لأن القرية فى خطر عظيم. نصحهم بالصلاة والتحسب. صلوا وهيأوا شموعهم، وراحوا ينتظرون هلعين. ثم راحوا يحاولون فهم ذنوبهم فوجدوا أنهم أهملوا الصلاة، وإنصرفوا أكثر مما ينبغى إلى أمور الدنيا، حتى تغلب عليهم أعداؤهم واستقووا. لكننا أبناء العذراء وهى سترحمنا. سترحم أكثرنا، وإلا لما ظهرت عندنا ورشحت زيتاً ودماً. ثم قال بعضهم إن الغمامة السوداء ليست سوى هؤلاء الصوماليين أو الزنوج الآتين من طرف العالم الآخر ليقتلونا نحن أبناء العذراء مريم . بكت النساء الصغيرات، فانتهرتهن الكبيرات قائلات إن هذا لا ينفع.

لم تكن أسلحة كثيرة فى القرية. وكانت فى أكثرها أسلحة قديمة وبدائية بعد أن أخذ الشباب إلى الجبهات ما كان صالحاً منها. لكن الرجال نظفوها بتأن، ووضعوها على مقربة دون كلام كثير عن جمال الأسلحة والمباهاة بها كما كان يحدث قبل ظهور العذراء، كان الكلام فى البيوت قليلاً، والزوار القليلون يلبثون صامتين.

نحن لم يكن أحد يزورنا. عرفنا أنا واسماء أن ذلك بسبب المرأة التى معى، وعرفنا أنا وأسماء بأنى شاب أمكث فى البيت ولا أخرج منه خروج الشباب من قومى.

لا أذكر أنها تكلمت طوال تلك الفترة التى مكثنا فيها فى القرية، تلك المرأة التى كانت معى. التى هربت معنا حين فرغت

fb/mashro3pdf

العاصمة من الناس بعد ليالى القصف الطويلة.

أذكر أنها كانت تمكث فى مكان واحد لا تقوم منه إلا قليلاً. وأنها لم تكن تنظر فى عيوننا حين كنا نكلمها أنا وأسماء كلامنا القليل. وحين تخرج أسماء من البيت كانت تتجنب البقاء معى فى غرفة واحدة. وحين تعود اسماء من الخارج، لا تكون أبداً فى غرفة الجلوس، تتركنا لكى تروى لى اسماء الأخبار على هواها ودون حرج. نلتفت، فلا نراها، وبتنا لا نسأل عنها ولا ندعوها للبقاء معنا أو لسماع الأخبار التى كنا نسخر منها فى بداية إستقرارنا فى القرية، كذلك لم تعد اسماء أبداً تصر على دعوتها للخروج والتنزه معها على الطريق حين يكون الطقس جميلاً، ومرة همست لى اسماء بأنها لا تريد لها أن تتعرض لكلمة ثقيلة. وفهمت بأن اسماء إنما تحرص على مخافة أن يتهم أحد المرأة التى معها بأنها جاسوسة. ومرة... أذكر أنى شككت فى أن أسماء تحاول إستدراجها إلى كلام فيه شىء من الإستفزاز لكى تبدو هذه المرأة التى معنا بعيدة عن قومها.

كان يتهيأ لى أحياناً أنها خائفة. وأحياناً بأنها ربما تبكى حين تكون منزوية نهاراً فى غرفة النوم، أو حتى فى الحمام وهى تغسل ثيابها. لكنى ما وجدتها محمرة العينين ولو لمرة أو حتى ندية الأهداب. كنت أحتار فى ما تراها تفكر فى صمتها الطويل، وفى تجنبها إياى. أفكر أنها ربما نادمة على مجيئها معنا إلى هذا

fb/mashro3pdf

المكان البعيد الذى لا يشبه أى مكان لديها. أو أنها ربما كفت منذ زمن عن حبى، وأنها إنما تنتظر الوقت الملائم لتتركنى وتعود.

تكون باردة فى الليل حين أقترب منها. باردة أكثر مما يبرر برد الشتاء فى القرية. وربما لأنها تعرف أنى أقترب منها غير مدفوع برغبتى فى جسمها. تعرف أكثر منى حين لا أكون راغباً فى جسمها. كان ذلك كأنه يواتيها تماماً إذ لم تكن تحاول حتى إشعارى بأنها مستمتعة بإقترابى منها. فقط تتركنى أحرك جسمها وتنصاع. أقربها منى فتقترب. أضع رأسها بين ذراعى وكتفى وآخذ أصابعها المثلجة إلى شفتى لأدفئها. أرفع وجهها إلى وجهى، فتغمض عينيها. أبتسم لها، فلا ترانى أبتسم. تعتقد أنى أحاول طمأنتها، لا حبها. ولا أجد فى جسمى رغبة مضاجعتها لأصحح ما تعتقد. تبقى باردة وقتاً طويلاً، ولا أفهم لماذا لا أجد فى جسمى رغبة. ربما أشفق عليها من تعريتها فى بردها حين أعرف أن جسمى لن يحمل لها الحرارة، وربما لأنها حين تكون هكذا أجدها أقرب إلى الطفلة التى لها ثديان كبيران. يحزننى أن تبقى باردة هكذا، ويحزننى أن أعرف أنى لست أباها الذى يدفئها فى حضنه، ولا زوجها الذى يضاجعها، واحتار فى من أكون هكذا قربها والليل على هذه الدرجة من الفراغ خارجاً، والثلج على هذه الدرجة من البياض والاستكانة.

fb/mashro3pdf

(٣)

قالت أسماء إنها تريد البقاء وبقيت.

ودّعتْ أسماء وكأنها لن تراها ثانية ولو دون كلام كثير.

حملت حوائجها القليلة ووقفت قربى.

حين قلت لها بأننا سنعود إلى العاصمة لم تمانع بحجة الخوف علىّ من القصف الذى كان ما زال مستمراً ولو أن حدته قد خفت. لم تتلكأ، ولكنها لم تبد أى فرح أو حماسة أو نفاد صبر. وكأنها كانت فى محطة ما، تتسلى بقضاء الوقت المتوجب، وها القطار يصل فى موعده بالضبط. وكأنها كانت تتوقع حصول أمر عادى ومتوقع، وها هو يحصل.

لم يكن الذنب ذنبها. لم تكن مسؤولة فى شىء، رحت أردد

fb/mashro3pdf

لنفسى فى السيارة. أنا الذى اخترت العودة إلى العاصمة، وها نحن نعود سوية.

لكنها لم تكن تنظر من زجاج السيارة إلى المكان الذى كانت تغادره، والذى مكثت فيه وقتاً غير قصير. لم تكن تلتفت إلى تلك البقعة من البيوت، الآخذة بالتضاؤل والإنكماش والتقلص كأنْ بفعل الثلج الذى يكسوها. وكأنها لم تقم هناك، ولا حتى عبرت عبوراً.

هل كانت القرية المبتعدة عن عينى من خلال الزجاج المكسو بغبش الأنفاس، تبعث فىّ الحزن أو الحنق أو الإحساس بفخ مكثت فيه أكثر مما ينبغى؟. لم أعد أعرف. كنت أعرف فقط بأنها إبتعدت، تلك القرية، وتضاءلت كثيراً. كنت أعرف أنه لولا المرأة التى بجانبى، كنت بقيت هناك، أو أنى كنت غادرت منذ زمن. أعرف فقط أنى ما كنت أبداً سأختار ذلك الصباح البارد بالذات. ما كنت سأختار ذلك الصباح لأنه، هكذا، لم أكن أدرى لماذا لم يكن يلائمنى. لكن هى كذلك لم تختر ذلك الصباح. لم تمل علىّ شيئاً. قلت لها سنغادر إلى العاصمة فوضبت حوائجها القليلة ووقفت بقربى.

بعد مضى أيام فكرت بأنها إمرأة بلا مكان، ولن تطيق مكاناً لى. تساءلت كيف كنت لأرى ما يصير حولى لو لم أكن أنظره بعينيها هى أيضاً، لو لم أكن أخاف عليها منه قليلاً. وتساءلت ما

fb/mashro3pdf

إذا كنت، لولاها، كففت عن التشابه مع أهلى، ومع أولاد أعمامى، وافترقت عنهم. وعما إذا كنت غادرت القرية فيما أهلها ما يزالون، بالاتجاه المعاكس، يطلعون إليها بما تبقى لهم من متاع قليل.

كنت مقتنعاً تماماً بأن مكان المرأة هو مكان رجلها. إن مكان المرأة هو رجلها. لكنى لم أكن رجلها، والدليل أنها تركتنى فى ما بعد. بعد أن تركتنى أيقنت أنى كنت تافهاً فى بطولاتى ومشاعرى النبيلة العادلة التى تشمئز من التعصب والعنف... أنى كنت مجرد حمار، أهبل، لأن ما حصل هو أنها، قبل أن تتركنى سلبتنى مكانى الأخير، وسلبتنى أهلى. تماماً ونهائياً بما أنى غادرت مثقلاً بعدالتى. كانت تعلم أنها جعلتنى كالدودة العريانة دون أهل فى وسط معمعة أقل ما يقال فيها أنها أهلية. تركت دودة إذا قُتلت فى الشارع برصاصة طائشة لا أحد يذهب إلى براد المستشفى للتعرف إليها، أو لحملها إلى حيث قبُر أهل تلك الدودة منذ مئات السنين. أخذت منى تلك المرأة قبرى.

منذ ذلك الصباح عرفت أن شيئاً طقّ فى داخلى. أن هورمونات مذكرة معينة قد انطفأت فىّ. وإلا، لماذا كنت شديد الهدوء إلى هذه الدرجة على الحاجز عند مدخل العاصمة. لماذا، والمسلح يبهدلنى لم أشعر بالمرارة ووجع المعدة الذى يعترينى كلما اضطررت للسكوت والإذعان لقلة حيلتى. قال لى المسلح: لماذا رجل فى مثل طولك

fb/mashro3pdf

وعرضك لا يشتغل. لا تشتغل ولا تحمل السلاح. كيف إذن تطعم إمرأتك... كيف تنام معها؟ أم تراها هى التى تطعمك وتـ... أيها اللوح. هل هى إمرأتك؟ أين أوراقها؟ إنزلا من السيارة.

كانت تمطر مطراً خفيفاً، ولم يسمح لنا بالإحتماء تحت السقف التنكى الكبير حيث يفتشون الأمتعة. بقينا ساعات طويلة، ربما لأن الشاب نسينا. إذ بمجرد أن التفت ورآنا، أشار بحنق أن اطلعا بالسيارة وأغربا عن وجهى.

كنا نقطر ماء حتى عام قماش المقاعد، وبقى يرشح ماء لأيام كثيرة. إنقهرت فقط لأن المقاعد بقيت مبلولة رطبة لوقت طويل، وطلعتْ فى السيارة رائحة عطن وعفن قوية. لم أفكر حينها بأنى، لو بقيت فى قريتى، وراء عزوة أهلى لما بهدلنى أحد. لم أفكر أنى، لو كنت مع أقربائى فى السيارة لما أهاننى مخلوق. على الأقل كنت انقهرت كرجل لا يستطيع سوى ذلك، وكنت عانيت من أوجاع معدتى لأيام بسبب سكوتى على الضيم. على الأقل.

عرّتنى لأكون لوحدى قبالتها. لأغدو ربما شبيهاً بالنساء. بالنساء الأخريات، إذ حتى نساء قريتى لا يخرجن كالدودة من أمكنتهن، من رجالهن. الأخريات اللواتى يشبهنها، اللواتى يفزعن ويكن وحيدات.

ثم تركتنى.

fb/mashro3pdf

مرتين.

قالت أسماء إنها ستعود فى المرة الثانية، لكن ما كان ينبغى علىّ أن أعيدها بالقوة عند معبر المتحف حين تركتنى فى المرة الأولى. حسب قول أسماء.

كنت أمشى على الرصيف، أحدق فى المارة العابرين وأعرف أنها ستجىء ذلك الصباح لتعبر إلى المنطقة الأخرى، فى الساعات المسموح العبور خلالها. كنت أعتقد أنها بمجرد أن تلمحنى بإنتظارها، ستتجه نحوى تنظر فى عينى أسفى على كل ما تريدنى أن آسف عليه، كل ما أعرفه وما لا أعرفه مما يستدعى أو لا يستدعى أسفى.

لكنها لم تفعل. حين لمحتنى على جانب الطريق، أسرعت سيرها بإتجاه الحاجز. إستغربت كثيراً ناديتها، بإسمها، واتجهت صوبها فركضت. راحت تركض دون أن تلتفت إلىّ. إنتبه لها كل الناس العساكر والمدنيون والمشاة إذ لا تسمح حركة العبور الهادئة المنتظمة بأى إشارة يمكن أن تكسر إيقاعها أو تبلبل الأمن المحسوب كدقات القلب. وجدت نفسى أركض أنا أيضاً إليها. كأنى أريد أن أمنعها من الركض أو أن أمنع عنها رصاصة توقف حركتها المجنونة، ارجوا ينظرون إلىّ أيضاً، وقبل عساكر الحاجز بأمتار وجدتها ما زالت تركض إليهم. هرباً منى. فهمت أنها تهرب منى.

fb/mashro3pdf

وسمعت خرطشة السلاح باتجاهها وبإتجاهى. قلت للعسكرى أوقفها فهذه المرأة تريد الهروب. توقفت على الحاجز مباشرة، وكنت ما أزال بعيداً عنه بضعة أمتار. توقف الجميع وراحوا ينظرون إلينا.. قالت للعسكرى أريد أن أمر فبيتى هناك، وهذا الرجل قد خطفنى. كأنى لم أسمع، لم أفهم، وصلت إلى العسكرى وسألته ماذا تقول هذه الـ المرأة؟ قال العسكرى أعطنى أوراقك. أعطيته أوراق هويتى وقلت له هذه زوجتى، تريد أن تهرب إلى عشيقها. قالت له، هذا الرجل خطفنى، وأريد أن أعود إلى أهلى. أعطيك اسماءهم فاتصل بهم، أخذنا العسكرى إلى خيمة قريبة فى ميدان سباق الخيل. طلب منها أوراقها. لا تحمل أوراقاً لأنها تنوى الهرب، قلت له. ثم طلبت أن أكلمه على إنفراد. إنتحينا بعيداً عنها. رجوته أن يفهم وضعى، ويجنبنى فضيحة إضافية فهى زوجتى وتود الهرب إلى حيث عشيقها فى المنطقة الأخرى ، قلت له ماذا عسانى أفعل بإمرأة، ولماذا أخطفها. قلت له بأنى كنت أستاذاً فى مدرسة شهيرة إنهارت بفعل القصف. قلت بأنى لست مسلحاً، ولا أخطف النساء. سميت له بعض أقربائى البعيدين من الزعماء. قلت له إن أراد أصف له علامات مميزة فى جسمها. قلت له تعرف ما يصيب النساء أحياناً، وكيف يتصرفن لينكدن علينا عيشنا.

قال خذ إمرأتك وامش إلى بيتك كان الله فى عونك. رحت إليها.

fb/mashro3pdf

لففت شعرها على معصمى جيداً، وقلت هيا الآن إلى البيت. نظرتْ بهلع إلى العسكرى. لم تتخابط معى. تبعتنى بإذعان أدهشنى، لكنى لم أترك شعرها. دفعتها داخل السيارة وخبطت الباب، إنتظرت قبل أن أطلع إلى مقعدى لأرى إذا ما كانت ستحاول فتح الباب ناحيتها والهرب ثانية فلم تفعل. كانت الكهرباء مقطوعة والمصعد متوقف. راحت تتسلق السلالم من نفسها. وكأن شيئاً لم يكن. فتحت الباب، فدخلت لاهثة. جلست على المقعد، فلبثتُ واقفاً أنظر إليها. ظلت جالسة دون حراك تنظر فى الحائط قبالتها. دون حراك فى الحائط قبالتها. وأنا واقف أنظر إليها.

بلحظة شعرت بعياء عظيم. ركبتاى بالكاد كانتا تحملاننى. ربما لأنها كانت شاحبة جداً، وربما لأنى لتوى صدقت أنها لم تنجح بالهرب وأنها قبالتى، وأنها امرأة قليلة الجمال إلى حد بعيد. وأنى ضربتها.

يا إلهى، إنها أقوى مما أتصور بكثير. أقوى بكثير من قدرة أى كان على الإحتمال وهى توصلنى إلى أماكن من ضعف وهشاشة لن يكون بإستطاعتى الإذعان لها أو القعود فيها.

يا مسكين. يا مسكين يا أنا، رحت أردد فى نفسى والدموع تنهمر من عينى ، يا مسكين. يا أنا.

fb/mashro3pdf

(٤)

إنها القناة التليفزيونية التي تبث من منطقتها، أدير التليفزيون على القناة التي تبث من المنطقة الأخرى لأفهمها أن لا مانع عندي أبداً من أن نشاهدها سوية، ولأفهمها بأني لم أختر السكنى في هذه المنطقة بملء إرادتي، وإذن هذا هو مكاننا نحن الأثنين في الوقت الحاضر. ولأفهمها بأنها لن تقيم هناك، لأني هنا، ولأن هناك وهنا حال واحد. جهنم واحدة. وبأنها إذا خطر لها أن لكل جهنمه التي يفضل أن يُسلق فيها، فإن لها شاشة التلفزيون، وقناة المنطقة الأخرى تتفرج عليها كيفما ومتى تشاء... ونتفرج عليها معها.

ننتقل بين القنوات المتكاثرة كالبهلوانات، كالفراشات بين رحيق

fb/mashro3pdf

الكراهية المتنوع الطعم. السكري العسلي المصفى بأي حال. فيتامينا تنا اليومية التي تقوي فينا نسغ الحياة، وتدفعنا إلى نهار جديد، إلى نوم عميق هنيء كذلك الذي كنا نركن إليه في حضن آبائنا، ثم إلى صباح مبارك جديد تطل علينا فيه شمس الرب بضوئها ودفئها. شمس الرب التي ضوؤها ودفؤها ما عادا يستطيعان اللحاق بنور إيماننا. إيماننا المشتعل كالهكسوجين.

يقطع كل البرامج ليظهر علينا. حين يملي علينا رسالته يكون قد غادرنا. ينظر إلى صورته على شريط الفيديو معنا. روحه الطاهرة القديسة تشاهد معنا جسده. نكاد نفسح لروحه على الكنبة بيننا ونحن نستمع إليه يقول لنا على التلفزيون: أنا الشهيد... نكاد نتلفت حولنا وهو يملي رسالته التي كتبها بنفسه والتي يقول فيها إننا في الوقت الذي ننظر فيه إليه ونسمعه يكون هو قد استشهد. في الوقت الذي نراه فيه للمرة الأولي في حياتنا، تكون حياته هو قد ذهبت. حتى صرنا نعرف من طلّته الأولى علينا، في التسجيل السيء والصورة المختلة الألوان، بأن هو، أحد قديسي الفيديو. الذين لا يرتجفون إلا على شاشاتنا. أمام كاميراتهم الصغيرة بتقنياتها البدائية التي لا تقيم للشكل وزناً. كيف يكون للشكل أي وزن والروح هي التي تتكلم الآن إليك دون جسدها. هؤلاء فراخ القداسة الصغار الذين تفقسهم مكنات الأوطان الصغيرة التي لا حيلة

fb/mashro3pdf

لها سوى إنفجار الشكل. هؤلاء الذين أنسوهم أمهاتهم واستبدلوا أجسادهم الفتية بلغط الأنتينات.

وهو يستبدلنا. يبتسم كأن لموجات الميغاهيرتز. كأننا شاشاتنا وذبذباتها الهوائية الممغنطة. كأننا زجاجها المسطح، يتحدث إلينا ثم إلى أهله قبل أن يشكر الحزب أو التنظيم الذي دله على الطريق، الطريق الذي يروح يبدو لنا شبيهاً بتلك الديكورات الكرتونية حيث تبدأ الطريق من خشبة المسرح، ثم تصعد في خلفيته وتضيف حتى تغيب في السماء بين الغيوم القطنية الزرقاء، فيما الراقصون والمغنون يصعدون أمواج الخطوة والصوت إلى علياء السوبرانو.

كأنه جدنا الذي في ليالينا القارسة المظلمة، يعلمنا الحياة. يقول لنا عطبها ومرارتها السامة اللذين لا رد لهما. لقضائهما، لكي، بعد وجهه مبتسماً، لا نخطئ درب المعرفة. الدرس النهائي الذي لا يقبل مراجعة أو تصحيحاً أو تعديلاً، ولا يفيد من الوقت وحكمته إلا رسوخاً على رسوخ ويقيناً على يقين.

كأنها دروس رددها طويلاً حتى انسابت سهلة. لا يتلعثم مرة أو يتردد أو يقف متنكراً. لا يتوقف لحظة عن الإبتسام ليركز أو يستجمع أفكاره أو يستدرك ذاكرته. أو ليصل الجملة بالجملة لا يتوقف عن الإبتسام وكأنه ما يقول ليس من الجدية في شيء.

هل عملوا مونتاج ما للكاسيت التي أرسلولها إلى التلفزيون،

fb/mashro3pdf

فأزالوا منها كل ما أتى على لعثمة أو تردد أو نسيان. أم تراه كتب رسالته بأحرف كبيرة وراح، عن بعد، يتلوها تلاوة.

يكون وراء مكتب حين يحدثنا، ليعطي أهمية ونبرة رسمية لما يقول. لكن هذا لا يتناسب مع ابتسامته، ولا مع رصف الكلمات التي تجيء مدروسة، مشذبة، وعادية إلى حد بعيد. عدا بعض الصور الأسلوبية الشديدة الإستهلاك، يقول كلام الموظفين، ذلك الذي يجعل عجلة الحياة مستمرة في دورانها البطيء العادي، لا كلام من جاؤوا للإخلال بتوازنها ولو للحظات. كأن مسرحية الموت الصغيرة التي أعدها مصنوعة بإتجاه الحياة لا عكسها. لا يقع الخلل إلا في اللحظة الأولى لظهوره علينا.

كأنه الروح التي تحدثنا لتقول إن الشهيد الذي يكلم الشعب والأمة ليس روحاً محضة. كأي منا يحدث أهله. يعتذر من أمه لأنه لم يودعها ،ولم يطلب موافقتها. يكون الولد الذي نحلم به جميعاً اباء وأمهات إذ ينفصل عن كوكبة المسلحين أصحابه، هؤلاء الذين يوسعوننا إهانة ونهباً وقتلاً. يصير وحيدنا جميعاً، المحب لأهله. الضنا الذي يعود إلينا بعد ضلال. حَمْلنا.

يقول إنه سيهرق دمه، ويكون أهرقه متبخراً، حين نراه للمرة الأولى. يكون دمه المادة الأولية للسعادة. تضيء إبتسامته السعيدة إلى مسافة بعيدة في دائرة يصل شعاعها إلى عدة كليومترات،

fb/mashro3pdf

وتسمع لها ضحكة كبيرة مدوية. الدم الذي يحقق مباشرة وفي اللحظة ذاتها تلك السعادة الشديدة الإشعاع، لا يشبه ذلك الذي يسري في أشرطة الشرايين المغلقة المعتمة. ذلك الذي يحتقن بالخوف وبالتهاب المفاصل وبالجلطات ودورات الحيض. ذلك الذي يشبه البالونات الصغيرة النابضة تحت مجهر المختبرات، الذي يرقم بالتحاليل والفحوصات، رائحاً غادياً من الكبد بالأغذية ومن الرئتين بالأوكسجين.

إنه دم آخر. مفتوح وخالص. ضارب نافر مكتمل في عناصره المركبة. مادة نورانية. لا لون لها لأنها ثبوت الألوان في التاريخ وتصحيح لمسار سوائله، لمسار جغرافيته الظالمة القاسية المتعنتة المتجبرة.

قال لهم خذوا كلوا. هذا هو جسدي فأخذوا وأكلوا. قال لهم خذوا واشربوا هذا هو دمي فأخذوا وشربوا.

كأن كل ما قال وصنع ليس مجازاً.

عبأوا الكل في علب الفيديو. أعطوها لسواق ماهر. قالوا له وزعها على مباني التلفزيون والإذاعات، وعلى وكالات الأنباء الأجنبية، وعد قبل أن تسخن البيرة وتبرد حسرة الأعداء. وقبل أن تتصل الأحزاب الزميلة وتفاوضنا على إنتاج الكاسيتات،

الفقير. الصغير اليتيم المغشوش. نكاد نوسع له بيننا. نكاد

fb/mashro3pdf

ننظر من النوافذ، علّنا نلتقط روحه السريعة في طيرانها إلى السماء. علنا نلحظ شهباً صغيراً، نعرف أنه سينطفىء حال وقوعه في مرمى العين. نكاد نرى بيننا، على الكنبة، إبتسامته تعتذر عن مشاركتنا حساء المساء القليل.

لكنه ليس بيننا. لا قبل ولا بعد. ولا قبر يزوره من كانوا أهله. ليس له مكان الآن خارج الشريط الذي لن يمر سوى مرة واحدة. مكانه الهواء، هذا الذي كان في الصورة المرتجفة المختلة الألوان. في المجاز وفي التجريد. مجاز بدون دلالة تتبعه وتجريد دون فكرة يحملها أو يرقى فيها.

هل عرف أن الوقت يشبهه. أن الوقت العمومي يتجه الآن مثله إلى الشريط. وأنه في النوستالجيا الساذجة الرومنطيقية التي تبدو آتية من ماض مضى، أكثر حداثة وعصرية من أوقاتنا نحن. كأنه يعرف من حيث لا أحد يدري أن صورتنا هي مستقبلنا، تحديداً تلك التي ستحل محلنا. أن الدلالة القادمة هي صورة الدلالة مفرغة من نواة ارتقائها. إن شاشة الفيديو هي التي سترفع سلطة العين على سلطة الدماغ. وأن هذا الشكل المطلق الذي ستلعب عليه العين، هو الذي سيكون موجوداً لا نحن. سيكون سيدنا. صورة السانتيز والهولوغرام، الصورة الإفتراضية. صورة مخترعة. الكمال مطلقاً. التجريد في أبهى حلله، لأنه متخفف من أثقال نقصانه الأول. عالم

fb/mashro3pdf

المثل والصور المكتملة الأولى التي حدسها الفلاسفة القدماء، وماتوا توقاً، وكنا نقضي حيواتنا فقط من أجل الحنين إليها. في نقصاننا لأننا حين ولدنا نسينا، فقضي حيواتنا الضئيلة، نسترجع صوراً عما كنا عرفناه. عن الجوهر. الآن سيكون لنا الجوهر مكتملاً. الصورة الجوهر مكتملة عوضاً عن أصلها الناقص. الهولوغرام، الهيولي، الخفة مقطوعة عن المادة، الثقل، الدلالة. الفضاء عوضاً عن جاذبية المكان.

النوستالجي الذي يبدو آتياً من زمن مضى يدخل الفيديو كأنه يعلم أن الصورة غدت الحد الفاصل في الحروب. إن الأعداء لم يعودوا يأتون من وراء الحدود. لم يعودوا ينظمون جحافلهم خلف الجبال والأنهار وعند الخنادق التي حفرتها رفوش الجنود الصغيرة المعلقة إلى جانب مطرات المياه على الخصور، قرب صور الحبيبات والزوجات. لم يعودوا يعبرون السهول الوسيعة كراً في الأرض المغزوة، وهم يرفعون أسلحتهم.

لم يعد المكان مقسوماً إلى ما قبل وما بعد الحدود لأنه غدا صورة محضة. ففي الحروب الداخلية ينتفي المكان. يترك ثباته ليتحرك كالهولوغرام ومعه الناس الفارغون من أمكنتهم، في فضاء المعارك المضيئة.

هذه المرأة التي تتابع النظر إلى أصابع يديها، تتأكد مثلي كل

fb/mashro3pdf

مساء من فراغها. الآن وقد غدونا نحن الاثنين صورة مكانينا، صرنا نتشابه إلى حد بعيد، كأخوين أو كأختين. أنظر إلى وجهها، وأقول كم صارت تشبهني. كم صرت أشبهها. الزوجان اللذان يفرغان من العالم الخارجي، ويمضيان وقتاً طويلاً في بيتهما، قبالة بعضهما، بعد أن تداخلت سوائلهما وروائحهما لليالٍ طويلة، لا بد أن يتشابها. اللذان لم تعد بينهما حدود وفرغا من المكان، وفرغ منهما المكان. يتشابهان أكثر مما يشبههما ولدهما، لأن الولد يصير إلى غير أبويه، فيما هما يصيران فقط إلى ما هما عليه.

نتشابه كثيراً حين نقف أمام المرآة. وحين نكون قبالة بعضنا. نتشابه كثيراً لأن لا مكان لنا خارجاً.

حتى جسمها، لم يعد مكاناً لي.

fb/mashro3pdf

(٥)

نتشابه كثيراً. كأن غضب الرب وانحيازه يقرب سحناتنا بعضها من بعض، داخل المستشفى، حيث تجمعنا بعد أن تركنا أمكنتنا، وكل من كنا نشبههم قبل المجيء إلى هنا.

ليست الأمصال والحبوب التى كانوا يوزعونها علينا هى التى كانت ترمى ذلك الحجاب الواقى على أعيننا، وتقينا النظرة المستقيمة. حين وجوهنا مرتاحة على صدورنا إلى تحت، أو موروبة مائلة والبؤبؤ يرتجف ويتردد، ولا يريد أن يستقر. لا يريد أن يعود إلى وضعه الأفقى الذى تعوده قبل، والذى يريد أن ينساه، وينسى

fb/mashro3pdf

شوقه إلى لقاء العيون الأفقية النظر، تلك التى رجوناها طويلاً قبل مجيئنا إلى هنا، ثم يئسنا.

دائماً ألسنتنا تثقل فى أفواهنا، وتعجز شفاهنا ـ التى تعطلت عن الكلام منذ زمن وارتدّت عنه ـ تعجز شفاهنا عن حملها وردها إلى الوراء. تثقل ألسنتنا فى أفواهنا وتكبر حتى تفيض عنها وترسل لعابها الفاتر الذى نشف طويلاً، وابتلعناه دونما جدوى.

كأن راحة رؤوسنا واسترسالها هى التى تجعلنا متشابهين إلى هذه الدرجة. كأن أماً واحدة ولدتنا، وما تزال تحنو علينا، وتربينا تحت جناحها، وتعرف أننا لن نكبر أبداً عنها، ونتركها إلى فسحة العالم الخارجية. الحليب نفسه فى الأكواب البلاستيكية البرتقالية والخضراء.

لكننا لسنا فى معتقلات إعتقال، إنها أمكنة تعودناها، ونعرف أن لا عوض لنا عنها. ليسوا قساة. لا تعرف مهنتهم «قسوة المهن» في الخارج. يعرفوننا ويقبلوننا ولا يحاولون إنكار تعبنا علينا. لا يحاولون تقويم اعوجاجنا. يهتمون بنا كثيراً، ويتكلمون عنا باستمرار، وبشفقة. يقولون إننا ضحايا. إننا ضحاياهم، وإننا الإصبع التى تشير إلى جرائمهم وقسوتهم. يستعيضون عنا بنا. يستعيضون عنا بنا، وحين نسمعهم نشعر بفرح من يسمع نفسه، وينطق بلغة أجنبية لم يتعلمها قط فى حياته. كأننا مواد نادرة بها يسترجعون

fb/mashro3pdf

ذكريات مجتمعات أهلية إنقضت. كأننا المدنيون الوحيدون الأخيرون، إذ نحن لم يعد من سبيل لدينا لحمل السلاح، نهائياً، ولم يعد من سبيل لدينا للإصطفاف فى جانب إحدى المجموعات المقاتلة، حتى ولا فى بطون عشائرنا.

كأننا وحدنا الأفراد. وحدنا الخفة المتطايرة فوق سماء المدينة. كأننا غلافها الجوى الوحيد الذى يحفظها من الإنجذاب إلى الفراغ البعيد. بألسنتنا المتدالية وبؤبؤنا المرتجف، كأننا فرصتهم الوحيدة، الحبل الوحيد الذى يربط هذه الأرض، يخفف من ثقل الجذب إلى العصاب، وإلى الإنفلات عن عقلة الدورة الكاملة التى تبقينا فى الأربع والعشرين ساعة من انتظام دورة الكرة. كأننا دواء العصاب والحافظون من جنون التطرف نعدّل فى حرارته، حتى لا يتجمد فينكسر، أو يحترق، فيتطاير هباء.

نحن الذين فقدنا وعينا يستعيضون بفقداننا عن وعيهم.

نتشابه فى خروج أجسادنا منا. فى تردد أعيننا عن الرؤية وفى تجنبها الضوء والوضوح. نتشابه فى خروج أجسادنا إلى التخفف والنحول، وفى خروجها عن الإنتظام إلى المزاج. لا نحب النوم فى الليل بل الغناء كالصراصير القريبة فى الحرش. ولا نحب النهوض فى الضوء بل التكدس فى الأسرة تحت الأغطية الدافئة كالسناجب.

نتشابه فى الخروج من جنس أجسادنا. لا نفهم لماذا يبعدوننا عن

fb/mashro3pdf

النساء كل جنس فى عنبره أو كيف يربطون بين بقايا رغباتنا وأجساد النساء. لا نفهم لماذا لا يعرفون كم أن أجسادنا وحيدة ومقطوعة، وأن رغبتنا، إذا جاءت، فإن لها هيئة اللعب. اللعب الخالص ذلك الذى لا يعرف الخسارة أو الربح، البداية أو النهاية. ربما لأننا أضعنا بداية أجسادهن صرنا كمن بين يديه لعبة ناقصة جداً. نراهن ونروح نجهد فى تذكر شيء بعيد احتفظنا له بطعم غامض، لا نستطيع ركنه فى أدراجنا المفتوحة دائماً إلى الهواء. لا نفهم لماذا تثير فيهم شعوراً كالخوف أو كالقرف حين نمرر أيدينا على أعضائنا، أو نهدهدها علها تذكرنا بشيء ما نزال نحتفظ له بطعم غامض لا نستطيع ركنه فى ميكانيكا أجسادنا القديمة. لكن ذلك لا يؤلمنا كما يؤلمهم. كأنه يبعث ذاكرتهم هم على طعم مرير.

حين تتشابه أجسادنا فى سموها عن جنسها كهالات القديسين المضيئة. نذكرهم بشفعائهم القدامى، بأجدادهم الذين كانوا بعيدين فى قراهم البعيدة، والذين كانت حروبهم أشبه بالتمارين على رياضة ضرب السيوف، على تدريب الخيول وتطويع البغال. هؤلاء كانوا الرجال الذين حفظوا الذرية نقية لأنهم حملوا أعضاءهم فى صرر من الجلود المدبوغة. وقدموها لنسائهم كمهور كريمة.

نحن الذين لا نحارب فى هذه الحروب، لا جنس لنا نحمله إلى نسائنا. كأن النساء خرجن منا حين خرجنا من قبائلنا دون أن نستحق

fb/mashro3pdf

الميراث. لأننا لم نمسك بالحبال التى كان يلقيها لنا الأجداد فى عتمة دورة الأجيال، والتى كان علينا، لكى نتقدم فى البلوغ وفى أجساد النساء، كان علينا أن نتمسك بها جيداً ونتبع الخيط الذى يخرجنا من دهاليز أجسادنا المراهقة.

نحن لم نرث معرفتنا. لم نرث أعضاءنا فى الصناديق الخشبية الكبيرة مع صكوك الملكيات، وعباءات العشيرة، وخناجرها المصقولة. لذا تضيع نساؤنا مع أول هبة ريح، وبمجرد أن نخرج للبحث عن ماشية شردت فى بخار المساء.

تضيع النساء منا. يتركننا كما تركتنى إمرأتى، تركتنى مرتين.

لكنى عرفت حين تركتنى فى المرة الأولى أنى إستردتها بالقوة. وأنها ستتركنى مرة ثانية بما أنها تركتنى مرة أولى. عرفت أن خيانتها لى سوف تتكرر وأن ما تفعله فى، فى قوتها المتصاعدة وفى جسمى ومن جميع أمكنتى.

أخرجتنى وأبقتى خارجاً. فى العراء. انظر إلى جسمى ولا أطاله. أدور حوله ولا أستطيع الاقتراب. كتلك الأحلام التى نرى فيها ليلاً بيتنا مضاءً، فى البعيد، ولا نستطيع دخوله نتخذ إليه طرقاً نكتشفها للمرة الأولى ونعرف إذن أنها غير تلك الموصلة إليه، وهو فى البعيد، مضاءة نوافذه لكنه مقفل ولا تصله أصواتنا ولو نادينا بأعلى الصوت، ثم ننسى البيت، ونروح نغرق فى الطرقات وفى

fb/mashro3pdf

التعرف عليها. تأخذنا هموم الطرقات الموصلة إليه والتى بتنا عارفين متأكدين بأنها ما عادت موصلة إليه. ويزداد بعداً، فيها الخوف والرغبة إليه فى أقصى إلحاحهما، هكذا كان جسمى فيما خوفى ورغبتى إليه، إليها، فى أقصى إلحاحهما.

fb/mashro3pdf

(٦)

لأنى لم أعد أعرف لحياتى أى ضرورة. ولأنى لم أعد أجد لنفسى أى قدرة أو قوة كانت حاجتى تتعاظم ـ على نحو مخيف ـ للقدرة والقوة. لأن أكون ضرورياً لأحد. ضرورياً ـ حدّ عدم القدرة على الاستغناء عنى.

لكن ممتلكاتى كانت قليلة جداً. ماذا كان بإمكانى أن أقدم لها مما لن يمكنها الإستغناء عنه. ماذا كان بإمكانى أن أقدم لها وهى، فى كل يوم، ترى كم هى قليلة الأشياء التى أملكها. وكم أنى لا أملك سوى ما يمكن الإستغناء عنه بسرعة وارتياح.

fb/mashro3pdf

كيف كان يمكننى الاحتفاظ بها ومنعها من تركى مرة ثانية مرة ثانية مقبلة لا محالة.

لم تكن تخرج أبداً. كانت دائماً قريبة منى وفى متناولى. كانت ، وهى المرأة التى تركتنى مرة أولى تحاول دائماً رد التهمة. تهمة لم أكن آتى أبداً على ذكرها ، لكنها كانت دائماً معلقة بيننا كمشنوق نكاد ، كيفما تحركنا ، أن نصطدم بقدميه الصفراوين، العاليين على سوية أبصارنا. لم أكن أشك فى معرفتها ما يدور فى رأسى وقلبى، وفى هواجسى. وحين أستفيق فى الليل، أجدها جالسة بقربى فى السرير، تنظر إلىّ فى العتمة. أو هل كان يخيل إلىّ؟ كم كان يحيرنى حينئذ نومى الذى تراقبه. هل كانت تنظر إلى قلق الرجل النائم، الرجل الذى تحبه، أم أنها كساحرة يقظة أبداً كانت تسكب علىّ أفكاراً شريرة مستغلة ضعفى فى إغفائى، وعدم قدرتى على مقاومتها. ماذا كانت ترى فى نومى مما لا أعيه عن نفسى. ماذا كانت ترى مما لا أراه.

كانت تريد أن تطمئننى بمكوثها الدايم فى البيت وبإهمالها هيئتها. نادراً ما كنت أنتبه كم أنها تغيرت. كانت دائماً ترتدى قميص النوم أو تلك الأثواب التى لا شكل لها ، السميكة الباهتة اللون الفضفاضة التى توحى بشىء واحد فقط، بأنها رخيصة الثمن جداً، ولا تفعل سوى ستر البدن.

fb/mashro3pdf

كانت تنتعل دائماً شحاطة قديمة لى. كبيرة على قدميها وبشعة، ومنها كانت تظهر قدماها مهملتين. أظافر قدميها كانت دائماً مقصوصة ونظيفة لكن ساقيها فقدتا رطوبتهما الدافئة وكستهما قشرة رقيقة من البياض الكلسى المتكسر، وكان الشعر النابت عليهما يقربهما من ساقىْ وقدمىْ الصبية والغلمان.

هل كانت تريد أن ترينى زهدها بكل ما يتعدانى، أم أنها كانت تفعل كل ما يمكنه أن يقمع رغبتى المتزايدة على نحو مجنون إلى جسدها. وكأن الإيقاع البيولوجى الذى ينظم أجساد الرجال قد تعطل عندى وطارت عقاربه فى كل إتجاه.

لم يكن إهمالها هيأتها يخفف من رغبتى بأى حال. ، هل كان ذلك لأنها كانت تتحول إلى تلك النساء من قريباتى، اللواتى على أجسادهن الفائرة بغير انتظام تفتحت رغباتى الأولى صبياً. ، هل كان ذلك لأنها غادرت شكل النساء الغريبات المتأنقات اللواتى نحلم بهن، وإذا قدرنا مرة على تطويعهن فإننا سرعان ما نرتوى وننسى. أو كأن شكلها الذى كان يبعدها عن النساء الغريبات كان يوحى لى بشدة إقترابها منى، وباستعدادها الدائم لاستقبالى كونها ملكيتى أنا دون كل البشر، كل الرجال الآخرين.

إذا كان الأمر كذلك لماذا ترانى كنت أغار عليها إلى هذه الدرجة. لم تكن ترى أحداً، ولم تكن تخرج، ورغم إطمئنانى إلى

fb/mashro3pdf

تدهور شكلها كان يكفى أن يطيل بائع الخضار جملته قليلاً وهو ينظر فى عينيها حتى ينتابنى حنق شديد يخض جسمى. لا أغار عليها كما يخيل إلىّ عن غيرة الرجال. هؤلاء الذين يتصورون أن أى شيء ممكن بين الرجال والنساء، وأن المرأة كائن غامض يغريه أن يبعث الرغبة ويقيم الفتنة، وأن عقولهن لا تقاوم غواية الغرام وتصديق ألاعيب الرجال الخبثاء. لم أكن أغار غيرة كهذه. كان يعذبنى أن ينظر إليها الرجال على أنها إمرأة، وحتى لو لم تشعر هى بشيء. كان يعذبنى أن يساووا بينها وبين النساء الأخريات، وأن يروها فى هذه المنطقة العمومية التى يلعب فيها الخيال ويسرح المزاج. أن يجدوها شهية أو جميلة أو حتى لطيفة مهذبة، كإمرأة. أن يروا أنها إمرأة، وأن تسمح لهم أخيلتهم الفالتة الفاسدة بالصور والرغبات. لأنى أعرفهم، الرجال. أعرف كيف يقطعون أجسام النساء إلى قطع مفصولة معلقة فى الخطاطيف فوق الأسرة فى العتمة أو فى الضوء. لا شيء يردهم عن إقتناء المرأة التى يريدون ويختارون. وهى ليست إمرأة للاشتهاء كالنساء.

حصان غيرتى كان أيضاً يفر إلى الوراء، وأغار مما مضى من عمر جسمها دونى. ربما لأنها لم تكن إمرأتى. لكن كيف يضمن أى زوج فى العالم أن تكون إمرأته له، وهى فى الماضى لم تكن كذلك، وفى المستقبل لا ضمان بأنها ستكون.

fb/mashro3pdf

لكنى كذلك كنت أغار من النساء عليها. لا أحب أن تتكلم إليها الجارات. ولا أحب أن تستمتع بسماع أغنية أو بمتابعة ممثل وسيم على التلفزيون. كيف أقبل بكل ضعفى هذا، وأنا أقمعه باستمرار وأخجل من ظهوره فىّ. لكنها، كأنها كانت تحدس كل ذلك فترجع عنه دون مطالبتى بشىء. لأنها كانت تحبنى، كنت أقول فى نفسى معللاً، فرحاً. لكن الشك كان سرعان ما يدخلنى، وأفكر أنها إنما تفرغ جعبتى من كل أسهمها لترى ماذا يكون من أمرى. تجارينى فى رغباتى المريضة لترى متى أرضى عنها وأكف عن قلقى الذى لا بد تراه وتعرفه.

إلا أنى عرفت فى ما بعد بأنها كانت تعطينى كل ما أريد لكى أبتعد عنها. لكى أتركها بسلام. لكى أحاول على الأقل الكف عن تعذيبها.

هذا عرفته، لكنى لم أعرف كيف كنت أعذبها... لم أعرف لماذا لا تقول لى أنت تعذبنى. فكف عن ذلك.

قلت لها مراراً لا بد أننى مخطىء فى حقها، لكنى قطعاً لا أعرف حدود خطئى الحقيقى. وعدت بالكلام مراراً إلى إستعادة يوم منعتها من الذهاب ورددتها بالقوة عن المعبر متواطئاً تواطؤاً بشعاً مع العسكرى على الحاجز. اعتذرت لها كثيراً ومراراً وقلت لها إن باستطاعتها الذهاب متى تريد. لم أكن أبلف... لكنى، وأنا أقول

fb/mashro3pdf

لها كل ذلك، كنت أشعر أن تواضعى وإنسحاقى لا يستحقان منها سوى القبول بالإعتذار ونسيان الأمر برمته. كانت تقول لى: لا بأس، لننس هذه القصة، كان ذلك بسبب شدة حبك لى. لكننى كنت أشعر فى قرارة نفسى، بأن جوابها ليس سوى تسوية، وبأنها لا تريد العودة إلى موضوع أطرح فيه أسئلة صعبة، كمثل سؤالى لها: لماذا أردت الهروب منى وتركى. مرة قالت: لأننا لا نستطيع، لأننى كنت أعتقد أننا لا نستطيع أن نكون معاً، أن نستمر هكذا. ورغم إلحاحى فى الإستفسار لم تضف كلمة واحدة. قالت أنت تعرف ما أقصد.

لا تتركنى لأنها، إذن، ما زالت تحبنى لكنى كنت، مثلها تماماً، أعرف أنى لن أدعها تذهب حتى لو هى حاولت ذلك. وكانت، مثلى تماماً، تعرف أن ضعفى هذا يشقينى وتحتمله معى. كأننا نحن الإثنين ابتلينا بى.

فى يحيرتى الكبيرة تلك ماذا كان يتبقى لى. ماذا كان يتبقى لى سوى جذع جسدها الذى كنت أعتقد أنه لا يكذب، الجذع الذى سيرفعنى إلى الهواء ثانية لأتنفس، أو يتركنى للقاع الأسود الذى لا أعرف منه سوى أنها لم تعد تريدنى.

لشدة ما كان قلبى وجلاً، كنت أقترب منها بثبات وإصرار فى حركاتى. أعلن رغبتى عالياً حتى أسبقها، وأقطع عليها إمكانية رفضى أو التردد. سريعاً أمحو من رأسى إحتمال أن لا تلاقينى بفرح

fb/mashro3pdf

كبير. أقتنع بأن زهو رغبتى لا يرد لأنه كبير وعارم ولا يسمح بغير الفرح والفخر واستثارة المزيد من الشهوة. لا أفهم كيف تبقى جامدة، وكيف بعد قليل تشيح بعينيها بعيداً عنى. كأن كل ما يلم بى لا مكان له. أقول إنها ربما تتدلل عليّ، ربما تذكرنى بأمر قبيح أتيته فى النهار، ونسيته بالطبع. لا أتوقف كثيراً لأتذكره وأحاول بيدى ولهاثى الإعتذار عنه مهما كان. لكن كيف يصبح جسد المرأة التى نحبها قصاصاً، الجسد اللئيم الذى يقاصص، وهى تمضى فى الإمتناع عليّ. وكأن لى كل ما أريده عداها. تفهمنى أن روحها فى مكان آخر، وعلىّ كالشاطر حسن أن أقطع البحار السبعة لغزاً لغزاً، وأفكها حتى أجد روحها فى الصندوق. أى صندوق؟ أنت هنا، أحاول أن أقول لها، أنت هنا وأنا أكاد أختنق غراماً ولهفة. لماذا أنا لا أستعمل جسمى. لماذا أهرقه لك ولا أحاسب أو أبالى. لماذا، بعد أن تركتنى، وأردت الهروب بعيداً عنى كباب تقفلينه، كحادثة طارئة وعابرة تكون قبلها الحياة ثم بعدها، لماذا بعد هذا كله وفى اليوم نفسه كان رأسى على بطنك ينشج كالمرمىّ لتوه عن المقصلة.

ولا أعرف متى تمتنع علىّ ومتى تقبلنى. أحياناً يخيل إلى أنها تقف أمامي بحبة السكر، حين أكون لطيفاً كدبّ، تكافئنى. كان يعذبنى ذلك كثيراً حين أصيب. لكنى لم أكن دائماً أصيب. أكون لطيفاً طيلة النهار كدبّ لطيف. أقوم بألعابى بنجاح، أبتسم وأصفق.

fb/mashro3pdf

أكون حساساً مدارياً، وديعاً، وفى الليل تمتنع عليّ.. أحياناً أخرى أكون يائساً، مراً، جلفاً كبغل، أحرن عن كل شيء، وأدق أظلافى فى الأرض طيلة النهار، أثير الغبار، أبعث روائحى الكريهة وأسمم الهواء، فتأخذنى فى الليل إليها. لم أكن دائماً أصيب. ولم أكن مخيراً فى ضبط عيارات عذابى وخسارتى المتراكمة. لم أكن أفهم لأستفيد ولأستخلصَ العبر.

كانت تقبّلنى أحياناً. وأحياناً كانت تقترب منى دون أن أتوقعها. تلتصق بى فى المطبخ، أو حين أكون خلف المغسلة أحلق ذقنى. أترك كل شيء ولا أتمهل فى أخذها بين ذراعى وفى طاعتها فى كل ما تلمح إليه. حتى حين أكون مريضاً أحتفى برغبتها كثيراً كأنى أريد أن أريها حسن ذلك، علها تكف عن ردى عنها حين أقبل برغبة تفوق رغباتها القليلة هذه.

لكن رغباتها القليلة راحت تقلّ حتى ما عادت تقبّلنى أبداً.

fb/mashro3pdf

(٧)

لأننا ما عدنا ننفع فى شىء، قال لى جابر، لا فى الحروب ولا فى نكاح النساء. لهذا يهتمون بنا هنا، ولا يلحون فى طلب الأموال من أهلنا. الآن تتكفلنا الدولة لأننا صرنا أبناءها المدنيين، يقول جابر بأنه لم يعد يريد العودة، وبأنه بات يدّعى المرض، ويمثله تمثيلاً لكى يبقى بيننا. يحب أن تتكفله الدولة بحنانها، فلا تطالبه بتحصيل قوته. لم أعد نافعاً لأهلى وعشيرتى لأنى، لست فقط غير منتج لخبز أولادى، لست فقط غير قادر على حمل رشاش لمجرد الحراسة فى الشارع، بل وصار جسم زوجتى يثير الشفقة فيهم وفىّ. فرج وحيد مستوحش متروك فى العراء. طلقتها وأتيت. كانت تبكى،

fb/mashro3pdf

وأنا أضحك. فقال أخى الكبير أرجعوه هنا كان الله فى عونه وعوننا، وأنا انصرفت كما ترى للتلذذ بسعادتى المطلقة. كان يضحكنى جابر. نضحك معاً كالغيلان. نضحك حتى يزجرونا، لأن ضحكنا العالى، كان يثير الدبابير النائمة فى رؤوس رفاقنا فيهتاجون.

fb/mashro3pdf

(٨)

حين لا أتشممها كالجرو لا أراها. لم أعد أراها حين لا تكون أمامى. كذلك حين تقبع فى حقدها الدفين علىّ.

حين تقبع فى حقدها الدفين، لا تختفى عن عينى، ولا تبتعد عنى إلى غرفة داخلية. بل تروح تلاطفنى كحوت ينقرض. الأخير من جنسه وها هو فى المراحل الأخيرة من إنقراضه القصدى.

تلاطفنى لأكف عن إفرادى نفسى، لأنتقل بنفسى إلى مكان يشبه أمكنة الآخرين التى تراها وتتخيلها. تكلمنى، أعرف جيداً، كما يكلمون الأطفال والحيوانات. الأطفال الذين لم يعد من سبيل إلى ردهم عن عنادهم وحماقاتهم بالقصاص وحده، الذى فى حماقتهم لا

fb/mashro3pdf

يؤذون أنفسهم فقط، بل يروحون إلى تحطيم مقتنيات الآخرين. تلاطفنى لتهدئنى كحيوان، لأكف عن عوائى وعن عضى أعضائى.

أهدأ لتبتعد عنى. ألبث لأرتب إنتقاماتى منها. لأرتب لها دروس الغرام الضائع. تلاطفنى كأختها الصغيرة. كأنى لست رجلاً.

ألبث قليلاً هادئاً فى مكانى. دون رد فعل، أحدق أمامى، أضع رجلاً فوق رجل، أتنفس بانتظام وبصوت مسموع لكى تعتقد أنى ركنت وهدأت.

حين لا أكون فوقها لا أراها. لا أراها لأنها تكون قابعة فى حقدها الدفين علىّ، فى حقد يشبه ذلك الذى يسبق اللحظة التى تقرر فيها أم الحيوان أن تقتل وليدها الضعيف أو المريض، أو أن تتركه فى عراء الغابة لموته فى مرضه وجوعه، ولتسير مع إخوته المعافين يتنططون حول أثدائها وهم يبتعدون.

أعرف حين تقبع فى حقدها الدفين علىّ بأنى رضيع بأسنان وأضراس، ثقيل ولا سبيل إلى قطع حبل صرتى النتن الذى أجرّه ورائى. أنظر خفية ومن طرف عينى إلى يدها البيضاء المدلاة عن مسند الكنبة ويطلع فىّ بكاء عميق. لأن دون تلك اليد الساكنة القريبة جداً وشفاهى، تقيم هى، تربض هى كتنّين.

أتنفس عميقاً وأشيح بعيداً عنها، لكن يدها تروح، كأن منفصلة، تتنقّل بجناحين صغيرين أمام شفتى المفتوحتين. تأخذنى على

fb/mashro3pdf

نفسى شفقة لا أملك التواضع اللازم من أجل إحتمالها.

كأنى أرى الحبال الرفيعة المجهرية لأعصابى تلتف على نفسها وتحتقن. كأنى أرى رباطات مفاصلى تقتصر فجأة، وتستقيم كأسلاك المعادن، تحز فى فتحاتها. كأنى أرى أمامى مسام جلدى تنفتح كأفواه صغيرة شافطة. وأقول لن أضربها، لن تحملنى على ضربها. سأخرج فى ليل الحروب، تحت القصف، حتى تقلق علىّ وتخاف أن أموت. حتى تخاف أن أموت وحتى تطلق العنان لرغبتها فى موتى.، أقول سأذهب لإمرأة أخرى تحبنى وتموت على رائحتى. امرأة تحبنى وتشهق حين ترانى فى عين بابها الزجاجية. تعيش على حلم دخولى عليها فى بعض وقتى المتعطل، فى بعض سأمى وضجرى ورغبتى اللعوب فى التغيير. فى الاقتصاص قليلاً من تلك الرابضة بينها وبين جسمها كتنّين سخيف.

أدخل على المرأة الأخرى باسماً، مصطحباً نفسى اللطيفة الداجنة. كفرس أصيل أصطحب نفسى الثانية معى. أشرب كأسى الأولى وأنا أنظر إليها، وأغازلها على أحسن ما تعرفه أعراف الغزل بين الرجال والنساء. أترك لها فسحة المزاج اللازمة لتدللنى فأدللها. أنصرف لها بكليتى كالعشاق القدماء. أروح من أجلها أشبه الممثلين ورجال القصص الوسيمين. تشرق لى المرأة الأخرى كفسحة بعيدة فى السماء الزرقاء. تروح من أجلى تشبه جنس النساء المبارك

fb/mashro3pdf

الحبيب. وأنا، أتابع رغبتها كخادم يتقن مهنته جيداً. أطيعها، وألحق خيط رغباتها كعلماء الخرائط. أهندسها على نحو ما تشتهي، وقد أنسى نفسي من أجل أن تزداد ألقاً بين يدى وتحت نفسي. أكون خالصاً فى جنسى متماهياً مع لذته ومرتاحاً فيه كأنى أجمل وريث لكل أجدادى الذكور. كأنهم بى اكتملوا وأقفلوا دائرة الأداء.

لا أغتسل، ولا أبقى طوال الليل. أعد المرأة الأخرى بالعودة القريبة، أقبل يديها بامتنان، لكنى أرفض الإغتسال والبقاء طيلة الليل. لا أنام عندها أبداً. كأن واجبا ملحاً يدعونى، كأن هذه الموجة الصغيرة التى تبدأ بالطلوع والإحتشاد فى بطنى، بعد أن أغلق الباب ورائى، لن ينتظر تدفقها طويلاً. على أن أسارع قبل خيوط الفجر الأولى وأعود.

أعود سريعاً. أعود كأن بارود يشتعل خلفى. أعود بزنختى وزنخة المرأة الأخرى كاملتين بائنتين. أدخل غرفة النوم وأجدها. نائمة أو تصطنع النوم إصطناعاً لتدّعى أنها لا تقلق علىّ من ليل الحروب، وأنها لا تربطنى إليها أو تردنى عن النساء الأخريات. أغضب من نومها، وأغضب من اصطناعها النوم. أقف فى العتمة أنظر إليها هادئاً، محاولاً إبتلاع غضبى المتصاعد من إستمرارها فى النوم أو فى اصطناعه. كأنى ما أتيت. كأنى ما خرجت.

fb/mashro3pdf

أنظر إلى رأسها المائل على المخدة حيث تكون دافئة وجهها أنظر إلى ثبات رأسها. وأنظر إلى التفافها على نفسها كالأولاد، إلى التفافها المحكم داخل الأغطية التى تجعلها حولها ككيس مربوط حول الرقبة. أنظر إليها وأعرف بلوى، مصيبتى، منابت قهرى. هذه المرأة ليست إمرأة. وهى كذلك ليست رجلاً. إمرأتى ليست فى أى الجنسين حتى أعمد إلى إدراجها فى خزانة المحفوظات الملائمة وأستريح. وإلا فكيف تستطيع أن تكون لوحدها إلى هذه الدرجة. مقفلة فى وحدتها إلى هذه الدرجة.

أرفع الغطاء عنها وأضربه فى الأرض. لا تلتفت إلىّ. كم من الوقت أستطيع أن أمكث فى الحاجة. كم من الوقت أستطيع أن أمكث فى الحاجة لأن تتحرك أو تلتفت. كم من الوقت أستطيع أن أمكث فى ترددى، فى الحيرة، ثم فى الذل. لماذا لا تكونين إمرأة، وتقفين صارخة فى الليل: أين كنت. لماذا لا تغارين علىّ من النساء. لماذا لا تقلقين علىّ من حروب الشوارع، تحيطينى بالرقيّات من الرصاص الطائش. من لك غيرى. تتركينى حراً كالأيتام أم حراً كالرجال؟ إذا كنت رجلاً فلماذا لستُ رجلك؟

أقف فى العتمة. أقول فى نفسى إنها الكحول وليست الرغبة فى الإجهاض بالبكاء.

أمسكها من شعرها، وأطويها جالسة فى السرير. تفتح عينيها،

fb/mashro3pdf

ولا تنظر إلىّ. اللعنة. أية قسوة، أية قسوة. أشعل النور وأخلع ثيابى أرفع قميصها البشع، وأفتح ركبتيها بقوة فلا تقاوم. تمد يدها إلى الزر فوق السرير وتطفىء الضوء. لا، أريد أن أرى أنك ترين أنى أرى. وأريد أن أرى أنك ترين. أريد أن أرى أنك ترين أنى أرى كل تلافيف ما تريدين إخفاءه ومنعه علىّ. أن ترى أنى أرى أن لك جنساً. أنك إمرأة وأنا رجلها. تشد بساعدها على عينيها، فأصفعها. افتحى عينيك. افتحى كل ما ينغلق فيك واستقبلينى. لاتجمدى. لا تُضربى وتحتجى. إفعلى كل ما تمليه عليك رغباتى. سأخترع لك رغبات مريضة غريبة عجيبة وأرى ماذا ستفعلين.

أرى خيطين لزجين يلتمعان عند صدغيها، تبّاً. اللعنة عليك اللعنة. فات الأوان كل الأوان. أقع. كأنى أقع فيها حين أدخلها بالقوة. كأن القوة . هى ثقلى الذى لا خيار لى بوقوعه من هذا العلو الشاهق.

أكون مجروحاً وموجوعاً كذئب حين أعوى فوقها. وقبل أن أسحب نفسى منها أتمنى موتاً فورياً يهبط علىّ كملاك، ينقض على قلبى ويقتلعه ويحلّق علياً كلمح البصر.

وحتى لا أبكى، وقبل أن أبكى بقليل أنهال عليها ضرباً. أنهال عليها ضرباً فتلتصق بى. أبعدها وأضرب كالأعمى فتلتصق بى بكل قوتها. ثم تحاول ضم رأسى إليها. ثم ترتفع عن الأرض إلىّ

fb/mashro3pdf

وتضمنى. تعرف إذن وترى كل شىء. يا للجحيم. أمسكها من شعرها وأدق رأسها على البلاط، فتضع يدها بين رأسها والبلاط حتى لا يشج رأسها. لا تصرخ، لا تئن، ولا تصرخ، ولا تقول كفى. يخطر لى أنها لا تريد أن يسمعنا أحد. أن يرانا، أن يرانى أحد. لا تريد أن أضطر إلى حملها إلى المستشفى. لا تريد شهوداً يعذبنى أن أتذكرهم فى ما بعد. لا تريد لى الفضيحة. تريد حمايتى.

أقول هى الشيطان وأضرب. أظل أضرب حتى تكل يداى ويتعب جسمى ويفرغ تماماً.

وأنام.

fb/mashro3pdf

(٩)

لم أعد أرى أبى فى أحلامى. لم أعد أرى أبى ليعلمنى.

كنت فى أحلامى أرى أبى فارع الطول كبيراً. كأنه ترك قدّه الصغير حين تركنا ومات. لم أكن أتكلم إلا فى أحلامى، إلا إليه. أقول له يا أبى فى قلبى حزن قاس ومتكور كحجر، فيضع كفه على صدرى ويصير الحجر رخواً. أقول له يا أبى أنى مقهور لأنى أضعت بلبلى الخشبي الأحمر فيقول لى أبى: تذكر أنك خبأته عن عينى أسماء فى جوربك الصوفى، وفى الصباح كان بلبلى يدور ويطن متمايلاً على البلاط.

لم أعد أرى أبى فى أحلامى ليعلمنى. ليعلمنى كيف يراضى

fb/mashro3pdf

الرجال النساء الزعلانات. كأن أبى هو الذى ضاع منى هذه المرة، من جملة ما ضاع، فكيف أتدبر لى أباً يدلنى عليه.

لذا، تبقى أسئلتى معلقة فى الشمس والهواء، أراها من بعيد كثياب مدلاة على حبل غسيل فى قرية غادرها أهلها من زمان بعد أن وقعت بيوتها من طولها على الأرض كما يقع الأولاد.

كيف أسترضيها وأنا أعرف أن أسفى وإقرارى بالذنب لا ينفعان معها، ولا ينفعان معى لأنى أعرف كذلك أن ندمى سيميل لا محالة حين ستميل النهار. أروح أردد لنفسى أن كل نساء الأرض يحلمن برجل يشتهيهن إلى هذا الحد. يخترعن الأعاجيب من أجل ذلك. وحتى لو لم تكن عاشقة لا يمكن لأى إمرأة أن تتجاهل كل هذه الرغبة لأنها كفيلة بذاتها أن توقعها بالغرام، ولو غروراً . لا يمكن ألا نحب من يحبنا إلى هذه الدرجة، وإلا فمن نحب إذن...

كيف أسترضيها وأنا لا أملك أن أقدم لها شيئاً، أن أمنحها لذة وأنا أغار عليها من كل اللذات سوى واحدة. لذة الأكل.

أدخل المطبخ وأروح دون أن أكلمها أعد لها مفاجأة عارمة، أعد لها الأطباق الطيبة التى أعرف جيداً أنها تحبها، أرتاح وينعدل مزاجى وأنا مستغرق فى الطبخ. فى غسل الخضار وتنقيتها. فى فرم البصل، وتسييح السمن. فى السلق والقلى والشي. ورغم عدم مرونتى، وجلافة حركاتى أروح أصفر وأغنى كأنى فى عيد. كأنى

fb/mashro3pdf

أدعوها إلى حفل عارم، وأنا أرندح بمقاطع من أغانٍ تحضرنى للتو لم أكن أعرف كيف حفظتها ومن أين. أغان من تلك الدارجة التى تتشابه أسماء مطربيها الشبان، والتى أعرف دون أن أرى ذلك بعينى أنها تثير ضحكها.

أجهز الطاولة، وأدعوها للأكل بصوت تتغنى فيه كل استعداداتى للمصالحة. للمصالحة عن طريق المحو والنسيان وكأن شيئاً لم يكن... تأتى تجلس وتبدأ بالأكل. كانت تأكل كثيراً. أستحثها على أكل المزيد، ولا أدع صحنها يفرغ وهى تأكل بنهم يريد من رغبتى فى ملء صحنها مجدداً. كنت أنظر إليها تأكل كل هذه الكميات بفرح عميق. ربما لأن الأكل كان يطمئننى على صحتها. على صلابتها وقوة إحتمالها. وربما لأن الأكل كان يؤكد لى بأنها ليست شقية معى. فالنساء الشقيات اللواتى لا يعشقن رجالهن يصبن بالسقم والشحوب. كنت أراها تسمن، تسمن وتستدير وتفقد إنسياب جسمها الجميل لكن من يحب إمرأة كما أحبها لا يعود يهتم كثيراً بشكلها، أم ترانى كنت أفرح بسمنتها لأنها تبعدها عن شهوة الرجال الآخرين وطالما أن شهوتى إليها كبيرة ومتعاظمة.

لكنها كانت تأكل كثيراً، ولا تتلذذ كثيراً كثيراً بالأكل. كأنها كلما أكلت أكثر قل تلذذها وكان من الطبيعى ألا أنجح إذن فى استرضائها وفى محو ذنوبى عن طريق إطعامها...

fb/mashro3pdf

لذا، كنت أعود إلى مراودتى الفظة إياها فى الليل. كإمتحان جديد أقربه خائفاً خافياً كأنه الإمتحان الأول. كنت أعود إليها لاسترضائها بمنحها اللذة الوحيدة التى كانت متبقية لى.

fb/mashro3pdf

(١٠)

قالت لى أسماء ما كان ينبغى أن تردها بالقوة عن الحاجز حين حاولت العودة إلى أهلها ذلك اليوم، لكن لا تخف، هذه الليلة أنا واثقة من أنها تأخرت عن العودة بسبب القصف. لكننى فى تلك المرة الثانية لم ألحق بها لأردها، ذلك أنى كنت واثقاً من أنها ستعود من نفسها.

قلت يوماً لجابر وهو يتمطى فى الشمس: أتعرف يا جابر أن روح الإنسان لا تخرج من فمه. وإلا فكيف يموت من يختنق. قال جابر: صحيح من أين تطلع روحه؟ قلت: كان الناس - وما زالوا - يعتقدون أن روح الإنسان تخرج من فمه، لأن الفم أوضح المخارج، أقلها إثارة

fb/mashro3pdf

للخوف، وأشرفها. لأنه آلة الكلام والصلاة. ولأن على الروح حين تخرج ألا تترك أثراً مادياً.

تخرج روح الإنسان من باب البدن، ليس لأنه باب، مخرج للخروج، بل لأنها تترك أثراً حقيقياً، ولو إتفقنا جدلاً أنه ليس من طبيعتها. حين يرى الناس المتحلقون حول من هو فى نزاع أخير، أنه أخرج خروجه يشيحون بوجوههم عنه، يوقنون أنه قد غادرهم الآن إلى غير رجعة، وتولول النساء.

اغتم جابر وقال لى: تفو. عيشة كلاب. تفو. فقلت له لكن تخرج روح الإنسان من جنسه أيضاً وفى الوقت نفسه. وفى ارتعاشة أخيرة تترك أثراً كالذى، فى البدء، داخل بويضة أمه، دعاه إلى النزول أهلاً بيننا. وكأن العمر بكامله يدور بين هذين الثقبين: واحد للأكل وواحد للحب. قال جابر: تفو. قلت: وقد يروح الحب من حب النساء إلى حب الله والموسيقى. ثقب للجسد وثقب للروح. قال جابر: أحسنت. ما زال لى حظ إذن بتذوق تلك الإرتعاشة حين أموت.

ضحكنا كثيراً. ظللنا نضحك، ونتدحرج على الحشيش الأخضر ونضحك حتى جاؤوا وأسكتونا.

لكننى فى غرفتى فكرت أنى كنت جاداً فى ما قلته للمجنون جابر: إن روح الإنسان، التى دخلت من جنس أبيه ومن جنسه خرجت، إنهاهى تقيم هناك.

fb/mashro3pdf

(١١)

سوف تعود لأنى ربيّت روحها. بذلت لها الدمع الغزير. كأن هذا الألم الذى قعدنا عليه، ننحته ونصقله حتى غدا كالكريستال، يتشظى الآن وتفسد صورتنا فيه إذا افترقنا طويلاً.

سوف تعود لأنه ينبغى علينا أن نكمل ما بدأناه. لأن لا شىء أبداً، يحدث مرة واحدة. على الشىء أن يتكرر أو أن يفسد تماماً ويخرب.

فى مرتفعاتهم البعيدة يدفن هنود الغويهيرا موتاهم مرتين. حين يموت الميت، ينقلونه إلى بيته كما هو، إن وقع خارج البيت. لا يغسلونه ولا يبدلون ثيابه. يلفونه فى شرشف أبيض ونظيف

fb/mashro3pdf

ويحملونه إلى مدفن العائلة. للعائلة مدفن واحد كبيت صغير جداً. يردون عليه باب المدفن، ويبكون الليل بطوله، وفى الصباح يرجعون إلى مشاغلهم. لكن معرفة الموت ودفن الميت لا تحمل إلى قلوب أهله اليقين الحقيقى بأنه ما عاد بينهم. فغياب اليقين هو العذاب. غياب اليقين هو الشوق المستمر لرؤيته ثانية، كأنه لا يموت إلا إذا مات مرة أخرى نكون حضرنا لها أنفسنا، حتى لا يجىء الموت ويخطفنا معه على حين غره.

بعد أن يدور القمر دورته ثانية ويسجل الوقت المنقضى، يعود أهل الميت إلى المدفن. يخرجونه ملفوفاً فى الشرشف، يودعونه، ثم يعيدونه إلى داخل المدفن. يحرقونه وهم صامتون، ثم يخرجون عظامه، ينقّونها جيداً ثم يغسلونها وهم يبكون. ثم يشقعون العظام النظيفة فى جرة صغيرة ستستقر فى المدفن إلى جانب جرار الأجداد والأخوة. لا يتدبرون عذابهم إلا إذا دفنوه مرتين. وفى المرة الثانية يموت فعلاً ويبدأ حدادهم المشروع عليه حيث سيتذكرونه، بعد أن يفرغ البكاء، فى سهراتهم المليئة بالحكايات المسلية.

fb/mashro3pdf

(١٢)

سوف تقول: لقد خطفنى ذلك الرجل مرتين.

مرة حين أحببته وتبعته، ومرة حين أخذ روحى، روحى التى كنت أعتقدها حرة فالتة وفى مكان آخر.

حين ستموت ستنتصب روحها عمودياً على جسدها المسجى وتقول لها من أين خرجت. ولماذا إذن فقط حين نبلغ تبدأ معرفتنا بالموت. وكيف ولماذا من الغرام الأول يقف الفتيان ببثورهم الكئيبة، وبعيون السجناء المرحلين إلى الجزر البعيدة، ينظرون إلى الضفة الأخرى، إلى حيث سيرون دائماً ذلك الثقب الأسود كعين

fb/mashro3pdf

الزوبعة، غرض حنينهم الأخير. وكأن ذلك الحب الأول طعن أولي لموت سوف يتمرنون عليه طويلاً على أنه اللذة القصوى.

سوف تعود لأنى قشرت روحها كفاكهة، وعلمتها أن الحياة أقل من أن تحظى بجسدين إثنين لأن لمسة الرجال الآخرين ستكون تكراراً. لقد علمتها الرقى والتسامى حين كسرت سير هورموناتها وجعلت لها، وهى فى عمر النساء، جسد الطفلات الصغيرات النظيف، وعلمتها كيف يرقى الجسد بالتجريد حتى يغلق روحه دون لمس الرجال البذىء الذى سيكون عذاباً وحيداً تعرفه جيداً. لتغلق روحها التى لا يطالها أحد إلا من ذلك الموضوع.

ستروح روحها بعيداً إلى الداخل لترقى وتسمى وتضىء.

fb/mashro3pdf

)

(١٣)

فى الشارع حين ستمشى سوف، كالقطب، ينجذب إليها، ويعلق فى مغنطة فسحتها، المجانين والقديسون، وهؤلاء الذين يكون موتهم قريباً.

الأمكنة حيث تتوقف، ستكون مصدر الشعاع الدائر بذبذبته الخفية التى تنتقى وتختار، وتلم إليها هؤلاء الذين صاروا، وهم بعد بين الجميع، صاروا يسيرون على طبقة من الهواء المضغوط بعذاباتهم. عيونهم وأنفاسهم سوف تلتوى بإتجاه ضوئها كالنباتات

fb/mashro3pdf

الخضراء.

لأن نجمها سيكون خفيفاً كملاك، سوف تمتص موجات أرواحهم المضطربة فيعرفونها من بين الآلاف، ويتجهون نحوها لينظروا فى عينيها. لينظروا فى عينيها، وليقول لها المدمن أنه يتألم، وأنه الآن يحتمل آلامه.

هكذا ترتفع وتيرة الجنون حتى أقصاها حين تكون قريبة.

وحين يراها المجنون يهدأ كما تهدأ مياه قبل المصب تاركة زبدها عند الأفواه.

وهؤلاء الذين تعرف أجسادهم موتها القريب، يبحثون عنها لكى يقعوا على مقربة من يديها. لتلمسهم ويذهبوا بصورة وجهها معهم. ليتذكروا ضوءها اللطيف.

سيعرفون إمرأتى من بين الآلاف لأنها تشبههم كثيراً، ولا تشبههم أبداً. لأنها بينهم وأبداً ليست معهم. يقعون فى ثقل اللحم الذى لهم من زمان لكى يكلوا إليها بالملح القليل الذى يشتعل حين تكون على مقربة. لكى يورثوها ملحهم. ولكى ترسل عظامهم آخر إشتعال فوسفورها، بدل أن يعس عساً، وينطفىء فى عطنه. لكى، حين يغرمون بها، يخرجوا من مدافنهم الصغيرة ويحترقوا ويموتوا مرتين. ككل العشاق النبلاء الذين لا يصلون أبداً.

لأن الحيوانات تسالمها، والكلب الهائج يهدأ حين تمر، ويروح

fb/mashro3pdf

ناظراً إليها يمرغ رأسه فى الأرض، لا يمكنها أن تكون لى وحدى. عليها أن تكون لهؤلاء جميعاً. لأنها ليست لأى منهم. ولكى يعطى وجودها طعماً للملائكة. لكى تكون الملائكة موجودة، ولكى نعرف أن لثقلنا نحن العشاق أملاً بخفة ما. أن لعذابنا شفيعاً.

fb/mashro3pdf

(١٤)

لكن كان ينبغى أن تعود.

كان ينبغى أن تعود، وأن أقتلها لكى يتابع المجانين والقديسون وهؤلاء الموشكون على الموت طريقهم المرسومة فى فراغ الفوضى.

لأن حيواتنا الموقوفة هى كذلك دوماً، وأن لا عدالة ننتظرها فى الأرض، ولا حين ستخرج أرواحنا من ثقبيها تاركة آثارها التى، لنسلّم جدلاً، ليست من طبيعة الروح. كان ينبغى أن أقتلها لأن إمرأة واحدة لا تكفى، ولأن شواذ القاعدة هو عذاب القاعدة الأقصى. ولأن كل إمرأة تحبها هى شواذ القاعدة وعذابها الأقصى.

لأن القاعدة هى لمن يهرمون بطيئاً، ثم ينطفئون، ولمن ينقصفون بالحروب دون علم منهم أو معرفة بإنقصافهم، بغتة، كمطر نسمع

fb/mashro3pdf

صوته خلف النافذة فجأة. وهو من زمان يهطل. فقط نسمع حين نسكت عن حديثنا المسلى ، ونستعد لتوديع زوار المساء.

لأن القاعدة ليست لمن يموت عشقاً، لمن يموت من عذابه وشوقه للخفة والضوء وخيال الحبيب. لأن القاعدة للممددين على الحمالات فى أروقة الطوارىء فى المستشفيات الحكومية، هؤلاء الذين تعثروا، وهم يسيرون ملبّكين بأيامهم وباستفاقاتها الكئيبة بين الباصات.

للذين، مصطفين على الحمالات، ذاهلين، يروحون لا فى الغيبوبة بل فى التساؤل حول تعطل آلاتهم. ففى الغيبوبة يرون أجسادهم كآلات معقدة غريبة وبعيدة. يتساءلون ليس فقط أين نحن بل ما هذا، وهم يشيرون فزعين إلى الآلات.

هكذا تغيب النظرة التى يعرفها لهم أهلهم. تعود تلك التى كانت فى المرة الأولى. ذاهلة باحثة عن أول أجسامهم. كأن نظرتهم الفارغة لنا، إنما هى ممتلئة مرتدة إلى داخلهم.

إنها لهم، القاعدة. لمخلوقات الرب السوية، للأعداد الهائلة المتراصة المتراصفة المتلاطمة، الذين يرقدون على الأسرة النظيفة، وعلى حمالات المستشفيات. وعذاب القاعدة نحن: الثقيلو الأحمال، المجانين، قديسو الفوسفور، الكلاب المسعورة، العشاق، والقتلة الفاشلون. وهى.

fb/mashro3pdf

(خاتمة)

أعرف أنه مضى وقت طويل وأنا هنا.

أعرف أني تعبان ومريض في عقلي، لذا حين أعود أحياناً من نسياناني الكثيرة، أفكر بأني لم أقتلها. بأني لم أقتل أحدا. بأن عقلي المريض كان، مفككاً، يتقافز في رأسي، فالتاً على هواه.

ربما لم توجد أبداً تلك المرأة التي كنت أراها في دائرة من الشمس، قاعدة بلا حراك في الحديقة تحت نافذتي، وربما جمعتها من نساء عديدات عرفتهن لأملأ فراغ جسمي من الرغبة. فالطبيب

fb/mashro3pdf

يلمح لي دائماً بأن عندي شكوكاً كثيرة لا مبرر لها.

قلت للطبيب يوماً بأني قد أشفى. وبأني أعرف علامة شفائي، وهي أن أستطيع السير مغمض العينين في المستشفى أو حتى في الحديقة دون أن أصطدم بشيء أو بأحد. وأن أستطيع أن أرى حدود الأشياء لا الأشياء، حركة الناس لا الناس، وأن أحسن التجنب.

ربما لم أقتلها. أشك عميقاً بأني أمسكت رأسها ورحت أضربه على الحجارة حتى شج وماتت. أشك في قدرة جسمي على هذا، وأشمئز منه. لم تكن هناك حين هشلت في الوعر ووجدني الشابان اللذان اختطفاني إلى المنطقة الغربية. لم تكن هناك ليس بسبب أنها صعدت إلى السماء، بل ربما لأني لم أقتل أحداً.

ربما عادت إلى زوجها، ولم ترجع إليّ بعد ليلة القصف كما كانت تطمئنني أختي أسماء لعودتها في اليوم التالي. وربما هي معه الآن، قربه، في سلام البلاد الذي خيم عارماً خالصاً نهائياً، في بيتهما البعيد الذي لا أستطيع أن أتصور له شكلاً أبداً، فيما أنا، ما زلت قاعداً في ليلة القصف حيث تركتني، أتأمل في فراغي منها، قبل الفجر بقليل، ككل أهل الهوى.

ياليل.

fb/mashro3pdf

أهل الهوى

- صـدرت فى بيـروت عن دار النهـار - 1993 ، تُرجـمت الي الايطاليـة - 1996 والى الفرنسية - 1998 ، تُترجم حالياً الي الانجليزية والى لغات أخرى

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

صدر من هذه السلسلة

1 - عيون الغرباء ..... فتحى غانم

2 - السرداب رقم 2 ..... يوسف الصائغ

3 - حكايات للأمير ..... يحيى الطاهر عبد الله

4 - مجنون الورد ..... محمد شكرى

5 - نجمة ..... كاتب ياسين

6 - نهر المجرة ..... عبد الوهاب البياتى

7 - السد ..... محمود المسعدى

8 - بناية ماتيلد ..... حسن داوود

9 - سرير لعزلة السنبلة ..... محمد الأشعرى

10 - حجر الضحك ..... هدى بركات

11 - سأهبك غزالة ..... مالك حداد

12 - الخماسين ..... غالب هلسا

13 - حزن فى ضوء القمر ..... محمد الماغوط

14 - مختارات ..... وديع سعادة

15 - سباق المسافات الطويلة ..... عبد الرحمن منيف

fb/mashro3pdf

16 – دعـوا الشقـاء سالمـاً ..... عبـاس بيضـون

17 – أف ! ..... زكريا تامر

18 – مجنون الحكم ..... سالم حميش

19 – مختارات من القصة المغربية ..... اختيار وتقديم أحمد بوزفور

20 – يغير البحر ألوانه ..... نازك الملائكة

21 – مختارات من القصة العراقية ..... ياسين النصير

22 – ملحمة السراب ..... سعد الله ونوس

23 – عليك تتكئ الحياة ..... ممدوح عدوان

24 – حكاية زهرة ..... حنان الشيخ

25 – ليس فى رصيف الأزهار من يجيب ..... مالك حداد

26 – أهل الهـوى ..... هدى بركـات

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

رقم الايداع : ٩٩/٧٨٦٥

fb/mashro3pdf

شركة الأهل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

أهل الهوى

ان من لم يعرف الهوى . والغرام مكتملا كشمس،
لايعرف . مكتملا ، الغرام كفطر نووى عملاق
لانفجار واحد وأبدى وثابت ، لايعرف . لايعرف.
ان بذرة الموت تنزل فى رطوبة الظلمة الملائمة.
حين نوقن من اللمسة الأولى أنه هو نفسه ،
ذلك الجسد وحرارته الملائمة المضبوطة
استثنائيا ونهائيا من أجل حرارة جلدنا
بذرة القتل.

آفاق الكتابة

شركة الأمل للطباعة و النشر

الثمن : جنيهان

fb/mashro3pdf